
Bibliotheca Alexandrina
02202485



مصطفى كامل باشا

في الرابعة والعشرين من عمره

المسئلة الشرقية

﴿ تأليف المرحوم ﴾

مصطفى كامل باشا

٧

الجزء الاول

﴿ الطبعة الثانية ﴾

سنة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٩ م

مطبعة « اللواء » بشارع الدواوين نمرة ٢٩ بمصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه خير الانبياء والمرسلين . (وبعد) فقد شهد هذا العام فوز الدولة العلية فى حربها مع اليونان فوزا عظيما وانتصارها نصرا مبينا ورأى العالمون بين أصدقاء للدولة وأعداء براهين حياتها ودلائل شبيبتها . فانتعشت نفوس أبنائها وأصدقائها وطمس الله على قلوب خصومها وأعدائها حيث قضى لها بما قضى من الفوز والنصر والسمو والرفعة

وقد طلب مني بعد انتهاء الحرب بعض أصدقاء يحسنون الظن بشخصي الضعيف ان اكتب تاريخ هذه الحرب الشهيرة فأجبت الطلب لا عن شعور بمقدرتي على ذلك بل عن سرور جزيل وحبور نادر المثيل بما نالت الدولة العلية حماها الله

وقد أحببت أن أقدم للقراء الكرام قبل تاريخ الحرب ملخصا عن المسئلة الشرقية التى هى موضوع اشتغال الشرقيين والغربيين . وانى أسأل القراء الكرام عذرا اذا كنت اضطررت للايجاز في بيان المسئلة الشرقية فقد قضى على الوقت بذلك . وأؤمل العودة لموضوعها فى فرصة أخرى مع بيان أوفى وأشفى

وانى أضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الابدية والنصر السرمدى ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر فى سؤدد ورفعة . وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها وللاسلام امامه وناصره جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازى (عبد الحميد خان الثاني) وأن يحفظ لمصر فى ظل جلالته عزيزها المحبوب واميرها المعظم سمو الخديوى (عباس حلمى باشا الثاني) ان ربى سميع مجيب

مصر فى شعبان سنة ١٣١٥ — يناير سنة ١٨٩٨

(مصطفى كامل)

المسألة الشرقية

« ١ »

اتفق الكتاب والسياسيون على ان المسئلة الشرقية هى مسئلة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة أخرى هى مسئلة وجود الدولة العلية نفسها فى أوروبا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسئلة الشرقية هى مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أى مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الاسلام وبين دول المسيحية . الا أن هذا التعريف وان كان فيه شيء من الحقيقة فليس بصحيح تماما . لأن الدول التى تنازع الدولة العلية وجودها لاتعاديها باسم الدين فقط بل فى الغالب تعاديها طمعاً فى نوال شيء من أملاكها . وقد أرانا التاريخ أحوالا كثيرة لم يستعمل الدين فيها الا سلاحاً أو وسيلة لنوال غرض جوهرى فهو ستار تختفى وراءه أغراض شتى

وأطماع مختلفة

والذى يراجع تاريخ الدولة العليـة ويقلب صحائف أمورها من أول وجودها الى اليوم يرى ان المسئلة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها . أى انه منـذ وطئت أقدام الترك ثرى أوروبا وأسسوا دولتهم الفخمة قام بينهـم وبين بعض الدول الاوروبية النزاع الشديد ودارت الحروب العديدة . وبالجملة فانه منذ ظهرت صولة الترك فى أوروبا أخذت بعض الدول على عهـدتها معاداة الدولة ومطاردتها والعـمل على اخراجها من هاته القارة . ولـكنها أعمال حبطت وآمال خابت اذ أصبح أمر بقاء دولة آل عثمان من أول الامور الضرورية اللازمة لسلامة بنى الانسان

وقد وهب الله الدولة العثمانية سلطة عالية ورهبة عظيمة حينا طويلا من الزمان فأخضعت لسـلطانها الامم والدول وأرهبت بقوتها وعظمتها كل قوى وكل عظيم ورفعت رايتها الهلالية الجليلة على أصقاع شاسعة وأقطار واسـعة . فابقت فتوحاتها وانتصاراتها فى نفوس الامم المقهورة بغضاء كامنـة

وعـداوة لدودة . فكان ذلك السبب الاول فى الحروب العديدة التى وجهت ضدها وأقيمت فى وجهها

ولمـا كانت البلاد الواقعة تحت سلطة الدولة العلية من أجمل بلاد العالم وأغناها فقـد تاقت نفوس أصحاب الدول الاوروبية لاخراج الترك من هذه البـلاد وتقسيمها بينها . فكانت هذه الدول تحارب الدولة العلية بأمل تقسيمها شيئا فشيئا والاستيلاء على أجزائها جزءاً جزءاً . وهذا هو سبب آخر لعداوة بعض الدول الاوروبية للدولة العلية

واذا دققنا النظر فى سبب العداوة المشهور وهو مسئلة الدين وجدنا ان الدولة العلية هى الدولة الوحيـدة فى دول الارض التى عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها بالتسامح والتساهل والاعتدال . فقـد اتبعت أوامر الشرع الشريف وتركت للمسيحيين حرية دياناتهـم وعوائدهم وتقاليـدهم واحترمت عقائدهم كل الاحترام فعاشوا طويلا ممتعين بهاته الحرية على حين ان مسيحيي اسبانيا قتلوا المسلمين لانهم مسلمون وهتكوا أعراض نسائهم وحرمة بيوتهم ومارحموا انسانا .

ولم تكتف الدولة العلية حماها الله بحسن معاملة المسيحيين واحترام أديانهم وعقائدهم بل عاملتهم كأعز أبنائها المسلمين ولم تميز بين هؤلاء وبينهم وسلكت مع الكل طريق المساواة وعينت الكثيرين من المسيحيين فى المناصب السامية والوظائف العلية وأتمنتهم على أمورها وجعلتهم محل ثقتها وبقاء المسيحيين الى اليوم فى الدولة العلية أكبر شاهد على اعتدالها الدينى في الماضى وفي الحاضر بل بقاء الجنسيات المختلفة كالبلغار والصرب واليونان وغيرها دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الدولة العلية احترمت من نفسها وبمحض ارادتها دين الذين وقعوا تحت سلطتها ولم تقهر أحداً على اعتناق الدين الاسلامي . ويعترف الكتاب والمؤرخون جميعاً بل ويعترف كل انسان فى الوجود مجرد عن الغرض الاعمى ان الدولة العلية كان فى قدرتها يوم كانت أقوى دول الارض أن تجبر كل المسيحيين في بلادها على اعتناق دين الاسلام أو أن تطردهم من أراضيها اذا خالفوا رغبتها . ولكنها احترمت الشرع الشريف فاحترمت الدين المسيحي وأصحابه

وهى حقيقة يقررها التاريخ وينطق بها كل منصف محب لها . ولكن من غرائب أحوال هذا الوجود أن هذه الفضيلة السامية . وهذه المكرمة الفريدة كانت أكبر سبب لكل ما لحق الدولة العلية من الضرر والاجحاف وأصلا لكل ما حل بها من المصائب والبلايا . فاحترامها لعقائد المسيحيين على اختلاف أنواعهم أقام أمامها بعض دول أوروبا بحجة المسيحيين أنفسهم وكان سبباً لحروب جمة

فمسئلة اختلاف الدين في الدولة العلية التى هى نتيجة الاعتدال الدينى والعدل والانصاف كانت ولا تزال الداء الدفين الذى يهدد حياة الدولة من وقت الى آخر . فتداخل الدول الاوروبية فى شؤون الدولة العلية باسم المسيحيين المحكومين بها. ومضايقة أوروبا للدولة باسم هؤلاء المسيحيين واضطرابات الدولة تقوم باسم هؤلاء المسيحيين. والانذارات التى توجه للدولة توجه باسم هؤلاء المسيحيين بل وأغلب الحروب التى جرت مع الدولة جرت باسم هؤلاء المسيحيين . ويعلم الله انهم سعداء الحظ فى الدولة العلية وان تداخل أوروبا

بحجة نصرتهم لالزوم له البتة

ولو أنصفت الدول الاوروبية قليلا لاعترفت بهذه الحقيقة الواضحةوهى ان المسيحيين فى الدولة العليةلا ينقصون عن المسلمين فى حسن المعاملة ان لم يكونوا من الراجحين . وهاهم اليهود لا يثورون ولا يهيجون ولا يشتكون ولا يتألمون بل يحمدون الدولة ليلا ونهاراً فى السراء والضراء ويسبحون فى كل آونة بنعمها عليهم وحسن رعايتها لهم . وما ذلك الا لأنه لا يوجد فى الدول الاوروبية دولة تدعى الدفاع عنهم والعمل لمصالحهم فهم ليسوا بآلات فى الدولة ضد الدولة بل هم يعرفون من أنفسهم أنهم عثمانيون ممتعون بكل الحقوق العثمانية . وأما العناصر التى كالارمن تستعملها بعض الدول كانكلترا فهى تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جليا فى المسئلة الارمنية وشوهد أن الارمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروستانت يثورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية

فمسئلة الدين في الدولة العليـة هي الآلة القوية التي

يستعملها أصحاب الدسائس والغايات وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة انما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الارمن في الحوادث الارمنية انما ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية .والذين ماتوا في كريد ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان في تساليا ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية نفسها ومن يعمل بنصيحة أعداء الدولة ويتبع أوامرهم جزاؤه مانال الارمن واليونان

وبديهى ان دولة مثل دولة انكلترا التى تدعى محبة المسيحيين فى الشرق و العمل لراحتهم وسعادتهم لو كانت صادقة فى دعواها لرأت من الواجب عليها أن تصافي الدولة العلية حتى تنال منها متمناها بشأن المسيحيين . والا فمن الجنون فى السياسة أن تدعي انكلترا محبة المسيحيين ثم تعادى الدولة العلية القابضة بيدها على زمام أمور المسيحيين . فهل يقبل العقل البشرى ان دولة قوية كالدولة العلية تعمل في بلادها

على خلاف رغبتها وتنيل أصدقاء الانكليز أى أصدقاء ألد أعدائها الراحة والسعادة والهناء ؟ هل يقبل العقل البشرى ان المسيحيين المدافعة عنهم انكلترا يعادون المسلمين ثم يسألونهم معاملتهم بالرقة واللطف وحسن العناية بهم ؟

ان الاتفاق والوفاق بين المسلمين والمسيحيين فى الدولة العلية لا يكون نتيجة الضغط والقوة بل نتيجة الميل المتبادل وحسن النية من الجانبين والاخلاص والوفاء للدولة العلية . واذا كانت دول أوروبا تريد حقيقة سعادة المسيحيين فى الشرق فأول واجب عليها هو أن تأمرهم بالامتثال لاوامر الدولة والتعلق بها والاخلاص فى خدمتها . والا فالدولة أو فالدول العاملة على القاء بذور الشقاق والعداوة بين المسلمين والمسيحيين لا تجنى ويستحيل أن تجنى شيئاً آخر غير العداوة المرة والخصومة الشديدة

وغنى عن البيان ان المسلمين فى الدولة العلية متى رأوا فريقا من أخدانهم المسيحيين يعمل بأوامر الاجنبى عدوه خائنا للوطن العثماني ناكثا لعهد الدولة العثمانية أى عدوه

دخيلا فى الوطن والملة والدولة . ووجب عليهم العمل ضده بكل مافي استطاعتهم قياماً بواجباتهم الوطنية . وهذا هو الشأن في أمم العالم فلو فرضنا أن فريقا من الانكليز قام يوما ما فى انكلترا باحداث الاضطرابات والثورات تنفيذاً لاوامر دولة أجنبية كالروسيا أو المانيا أو فرنسا . فأى واجب تحتمه الوطنية عندئذ على بقية الانكليز أليس القضاء على هؤلاء الخونة المنفذين لاوامر دولة أجنبية بكل الوسائل

القائمون بالثورات والاضطرابات في الدولة العلية خونة منفذون لاوامر أعداء الدولة يجب على العثمانيين الصادقين اعلان العداء لهم والانتقام منهم بكل ما في الجهد والاستطاعة

ويستحيل الوصول كما قدمنا الى الاتفاق السليم الصحيح بين المسيحين والمسلمين فى الدولة العثمانية الا باخلاص الجميع لها اخلاصا تاما

هذه هى الحقيقة وحدها دون غيرها

واذا كان اختلاف الدين فى الدولة العلية هو داء من

أدوائها بل هو أكبر أدوائها فالدخلاء فى الدولة العلية داء عضال وبلية لا تعادلها بلية . فان الذين كانوا سبباً فى هزيمة الدولة فى حروب مختلفة هم الدخلاء والذين ساعدوا الدسائس الاجنبية هم الدخلاء . فقد دخل فى جسم الدولة العلية كثير من الاجانب نساء ورجالا وغيروا أسماءهم بأسماء اسلامية وعملوا على الارتقاء فى المناصب حتى وصل بعضهم الى أسماها وصاروا من أقرب المقربين فعرضوا بالدولة للدمار وأطلعوا أعداءها على أسرارها . وقد انتشر الدخلاء فى الزمن السالف الى كل فروع الدولة العلية حتى فى الجيش نفسه وصارت لهم سلطة عظيمة ونفوذ كبير وكنت تجد من وزراء الدولة العلية من يعمل لصالح الروسيا مدعيا انه روسى السياسة ومن يعمل لصالح انكلترا مدعيا انه انكليزى السياسة ولكن ليس منهم من كان عثماني السياسة

ولولا أن الأمة العثمانية أمة حية قوية عظيمة الشهامة والوطنية لكانت تلاشت اليوم بدسائس الدخلاء ولو كان للدخلاء في دولة أخرى ما كان لهم فى الدولة العلية من

السلطة والحول لكانت تقوض بنيانها وتداعت أركانها . وان أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لابطال مساعى الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالى . فلقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب. فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لاعلاء قدرها . وقد برهنت الحرب العثمانية اليونانية على ان للدولة اليوم رجالا من أبنائها الصادقين يخدمونها بالامانة والوفاء ويتفانون في محبتها وأن ليس للدخلاء من سبيل لنوال مآربهم السيئة . فأمثال صاحب الدولة « أدهم باشا » الذى كان مجهول الاسم عند الكثيرين من العثمانيين قبل الحرب كثيرون في الدولة العلية تظهرهم الحوادث وتعرفنا بهم وبقدرهم المشكلات

وان أغرب شيء فى أحوال الدولة العلية وفى تاريخها يدهش أعداءها ويحير الكتاب الكارهين لها هو بقاؤها حية بعد كل المصائب التى تساقطت عليها والبلايا التى نزلت

بها . فلقد رأت هذه الدولة العثمانيــة مالم تر دولة من دول الارض القــديمة والحــديثة فقد كانت تتحالف معها بعض الدول كالنمسا مثــلا وتعمل وهى متحالفة معها على الاتفاق مع الروســيا على تقسيمها . وقد كانت تتظاهر انكلترا لهــا بالصداقة والوفاء وتسعى وهى متظاهرة كذلك على ضــياع أملاكها من يدها وســقوطها فى قبضتها . وقــد كانت دول أوروبا كلها تجتمع وتتحد على ماتسميه بالمبدأ المقدس مبــدأ حماية استقلال الدولة العلية وســلامتها : ثم كانت هي بعينها تجزىء الدولة العليــة باسم هذا المبدأ المقــدس نفسه . وقد كان العاملون على تقويض أركان الدولة وحلها عديدين أقوياء . ومع ذلك كله لا تزال الدولة العليــة حماها الله قوية ثابتة الاركان تخافها أقوى الدول ويخطب ودها امــبراطور شهد العالم كله بقوته وعظمته وبأسه

ولقــد يندهش الانسان غاية الاندهاش عند مايقرأ ما كان يكتب من نحو مائة وعشرين سنة عن الدولة العلية . فقد كان الــكتاب والسياسيون يتناقشون فى مشروعات تقسيمها

فالبعض كان يريد أن يؤسس مكان الدولة العلية « الاتحاد البلقانى » والبعض الآخر كان يريد اعادة ملك بيزانتان وكان سياسيو الروسيا والنمسا يتباحثون فى مشروع تقسيم الدولة بين دولتيهما فكل كان يضع مشروعا والجميع كانوا متفقين على ان الدولة قصيرة الاجل وأكثرهم أملا فى حياتها كان يجود عليها فى مشروعه بعشرة من السنين أو عشرين عاماً . ولو بعث اليوم من القبور كتاب أواخر القرن الماضى وسواسه ورأوا الدولة العلية قائمة عزيزة تحارب فى أواخر القرن التاسع عشر وتنتصر وتجتاز العقبات عقبة بعد عقبة وتصرف المصائب مصيبة بعد أخرى لكذبوا أعينهم وما صدقوا بالحقيقة

ولكن الحقيقة هى ان بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى وان فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق وان الله جل شأنه أراد حفظ بنى الانسان من تدمير بعضهم البعض ومن حروب دينية طويلة بحفظ سياج الدولة العلية وبقاء السلطنة العثمانية . فقد لاقت هذه الدولة العثمانية فى حياتها الطويلة أخطاراً هائلة كانت تكفى لتداعى بنيان أقوى

الممالك . ومرت عليها ملمات كانت تندك لها الدول القوية والممالك القاهرة بدون أن تمس حياتها الحقيقية بسوء بل بقيت حية تدهش العالم بشبيبتها

وقد أحس الكثيرون في أوروبا من رجال السياسة ومن رجال الاقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام وان زوالها (لاقدر الله) يكون مجلبة للاخطار أكبر الاخطار ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالارض شرقها وغربها شمالها وجنوبها . وان هدم هذه المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة من المسلمين وحرب دموية لاتعد بعدها الحروب الصليبية الا معارك صبيانية

وان الذين يدعون العمل لخير النصرانية فى الشرق يعلمون قبل كل انسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحيي الشرق عموماً قبل مسلميه . فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الامور على أن دولة آل عثمان لاتزول من الوجود الا ودماء المسلمين والمسيحيين تجرى كالانهار والبحار فى كل واد

وهى الملمة التى يجب على محبي الانسانية الصادقين فى محبتهم العمل لمنع وقوعها ودفعها بتعضيد الدولة العلية وتقوية سلطانها

ولقد اعتقدت الآن الروسيا كما اعتقدت النمسا ـ وقد كانتا العدوتين القديمتين للدولة العلية ـ بأن تقسيم الدولة العلية أمر مستحيل فعملت كلتاهما على المحافظة على السلام العام بالمحافظة على سياج الدولة العثمانية

فقد رأت النمسا أن حروبها مع الدولة العلية أضرتها ضررا بليغا وظهرت النتائج المشئومة لهذه الحروب. فقد ضعفت النمسا وانتهى بها الامر أن فقدت أملاكها الايطالية التى تكونت منها ايطاليا الحالية وفقدت كذلك أمام بروسيا جزءاً عظيما من مقاطعاتها الالمانية

ولقد عملت النمسا فى عهد عدائها للدولة العلية على تهييج أمم البلقان ضد السلطنة السنية باسم مبدأ الجنسيات لانها بصفتها دولة كاثوليكية كان لايمكنها أن تهيج هذه الامم الارثوذكسية باسم الدين. فكانت نتيجة تهييج النمسا لامم البلقان

باسم الجنسيات وبالا عليها . وذلك ان مبدأ الجنسيات نفسه وجد أنصاراً كبارا فى قلب المملكة النمساوية فقامت المجر ونالت حريتها واستقلالها النوعى باسم مبدأ الجنسية المجرية . وهاهى أمة البوهيم قائمة اليوم بالمطالبة باستقلالها النوعى باسم مبدأ الجنسية البوهيمية . وقد أصبح من الظاهر للعيان أن دولة النمسا تنازع نزاع الموت فى الايام الحالية بفضل مبدأ الجنسية

أما الروسيا فقد قامت دائما في المسئلة الشرقية باسم الدين الارثوذكسى فعملت لاخراج الرمانيين واليونانيين والصربيين والبلغاريين وأهل الجبل الاسود من تحت سلطة الدولة العلية باسم الدين الارثوذكسى . فنشأ عن ذلك مع استقلال هذه الامم الصغيرة عداوة شديدة بينها وبين بعضها لما وجدت فى نفسها من الطمع لتوسيع دائرة أراضيها ذلك فضلا عن أن الكنيسة اليونانية التى هى أم الكنائس الارثوذكسية أصبحت غير معتبرة عند البلغاريين والصربيين والنزاع القائم بين هذه الجنسيات المختلفة فى مقدونيا يبين جيداً درجة عداوتها لبعضها ودرجة الخطر الذى صارت اليه

بلاد البلقان يسبب مسئلة الجنس والدين

واذا بحثنا فيما اكتسبته الروسيا من حروبها مع الدولة العلية نجد انها عادت تركيا قرنا ونصف قرن وحاربتها المرار العديدة وفقدت الرجال والمال بكثرة عظيمة فى كل حرب . ولم تنل فى الحقيقة من كل حروبها الا بلاد القرم والقوقاز . وقد رأت الروسيا مالم تكن تظنه أبدا وهو ان بعض البلاد الصغيرة التى حررتها كصربيا وبلغاريا واليونان ورومانيا عادتها أشد العداء . ولا تزال صربيا ورومانياواليونانسائرة في سياسة لا ترضى الروسيا . وعلى الاخص رومانيا التى تمكن بينها وبين المانيا والنمسا والدولة العلية الصفاء والوداد ولم تعتدل بلغاريا نفسها فى سياستها مع الرسيا الا فى هذه السنين الاخيرة من يوم اعتناق البرنس بوريس ولى عهد بلغاريا للدين الارثوذكسى

وقد رأت الروسيا من جهة أن حروبها مع الدولة العلية لاتفيد غير انكلترا التى قوى مركزها فى آسيا وفى الشرق الاقصى والتى لها أعظم مصلحة فى اضعاف قوة الروسيا

واضاعتها الوقت والمال والرجال في حروبها مع الدولة العلية.
ورأت كذلك من جهة أخرى انه يستحيل عليها أن تأخذ
الاستانة وتنفذ وصية بطرس الاكبر لما تلاقيه فى القيام
بهذا الامر من قبل الدولة العلية ومن دول أوروبا نفسها
وفى مقدمتها فرنسا حليفتها . ولذافضلت الروسيا الاهتمام
بمسائل الشرق الاقصى ومسئلة تركيا . وقد تحقق العثمانيون
من هذه المسالمة فى المسئلة الارمنية وفى مسئلة الحرب الاخيرة

وقد شهد السياسيون بانه لا يوجد فى تاريخ علاقات
الدولة العلية مع الروسيا للمسالمة والصداقة مثل التلغراف الذى
بعث به جلالة القيصر الى جلالة السلطان يرجوه فيه أن يصدر
أمره بايقاف الحرب مع اليونان

أما الدولة التى أصبحت فى هذه السنين الاخيرة حاملة
لراية العدوان ضد الدولة العلية فهى انكلترا عدوة الاسلام
وعدوة مصر

فلقد قضت هذه الدولة أزمانا طويلة ظهرت فيها
للدولة العلية بمظهر الصديقة الوفية والحليفة الامينة . وكانت

تكسب من هـذه الصداقة !!كاذبة بقـدر ما كانت تخسر تركيا . فان لانكلترا مصلحة عظمى داعية فى أن الروسيا تحارب تركيا لتضعف قواها فلا تستطيع مطاردة الانكليز فى الهند والشرق الاقصى ولتضعف تركيا فتستولى انكلترا على شيء من أملاكها بحجة الدفاع عنها . وفوق ذلك فان انكلترا كسبت كثيرا من صداقة تركيا لها ـ بقطع النظر عن المكاسب المادية والتجارية والصناعية ـ بما كانت تنيلها هذه الصداقة من النفوذ عند المسلمين ومن السلطة التامة على مسلمى الهند . فلقد كاد أهـل الهند يطردون الانكليز من بلادهم فى ثورة سيباى الشهيرة لولا صداقة تركيا لهم هـذه الصداقة التى حملت المرحوم السلطان (عبد المجيد) على اصدار منشور لمسلمى الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والهدو وعدم القيام باحداث الاضطرابات ضـد حكومة صديقتـه « ملـكة بريطانيا »

فاذا كان الانكليز في الهند عاشوا طويلا آمنـين شر المسلمين فمـا الفضل فى ذلك الا للدولة العليـة . وهاهم اليوم

يدعون ان تركيا « عـدوتهم الحالية » وصديقتهم القديمـة أوعزت الى الهنود المسلمين بالثورة فثاروا ولا يزالون ثائرين وسواء كانت ثورتهم بايعاز من تركيا ـ وهو مالا أظنه لان الثورة قائمة بها قبائل معلومة ولو كانت الدولة العلية أوعزت بالثورة لثار مسلمو الهنـد جميعا ـ أو بايعاز من ضمائرهم ونفوسهم . فدعواهم هذه دليـل ساطع على أنهم استفادوا كثيرا من تظاهرهم بالصـداقة للدولة العليـة وان اشهارهم العداوة لتركيا لايضر الا بهم

ولقد أدركت الحكومة العثمانية من يوم أن تولى أمور الدولة العلية جلالة السلطان الاعظم (عبد الحميد الثانى) ان انكلترا خداعة فى ودها وانها تضر بمن تتظاهر لهم بالصداقة أكثر مما تضر باعدائها الظاهرين . فقد أخذت من الدولة العلية قبرص بدعوى مساعدتها ضد الروسيا فى مؤتمر برلين ثم دخلت المؤتمر وخرجت منـه بدون أن تستفيد تركيا من هـذه المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة . بل ان الدولة العلية فقدت فى هذا المؤتمر مالم تفقده قط في مؤتمر آخر

وقد شعرت الروسيا كذلك بعد حرب سنة ١٨٧٧ أنها لاتستفيد من حروبها مع تركيا مايعوض عليها خسائرها العظيمة في هذه الحروب ففضلت سياسة مسالمة الدولة على سياسة العداء . فكان هذا التاريخ مبدأ للشقاق والعداوة بين الدولة العلية وبين انكلترا . وقد ظهرت هذه العداوة بمظهرها التام الواضح بعد احتلال الانكليز لمصر . حيث رأى جلالة السلطان فى هذا الاحتلال وفى خطة الانكليز فيه وفى خداعهم لجلالته ماعلم منه ان الانكليز لاصديق لهم وانهم أكبر أعداء تركيا وأن صداقتهم القديمة المزعومة لم تكن الا حجاباً ستروا وراءه عداوتهم المرة وأطماعهم الشديدة ضد دولة آل عثمان

ومن ذلك الحين عملت انكلترا على دس الدسائس ضد السلطنة السنية فى كل انحاء الاملاك المحروسة فهاجت الارمن والكريديين والدروز . ولكن دسائسها لم تأت بغير نتيجة واحدة . وهى اضعاف هذه العناصر التى اتخذتها انكلترا آلات لها واظهار قوة الدولة العلية أمام الملأ كله .

وقد علمت اليوم كل العناصر على اختلافها وجميع الامم صغيرة كانت أو كبيرة أن عـدو اليونان الحقيـقى ليس بتركيا التى صبرت على رذائلها طويلا بل انكلترا التى شجعتها على الحرب وساعدتها فى السر والجهر وملأت مقـدونيا من الاسلحة والدنانير الانكليزية مؤملة قيامها فى وجه تركيا أثناء الحرب فخابت آمالها وحبطت مساعيها ورجعت مخـذولة خذلانا سياسيا دونه خذلان اليونان الحربي

وقد حسب الانكليز أنهـم يبلغون متمناهم من مصر ووادى النيل ويضعون بذلك أيديهـم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية . ولـكن مالا ريب فيه هو أن نصيبهم فى مصر الفشل عاجلا أو آجلا . ولا يغرن القراء سيرهم الحالى فى بلاد وادى النيل فانمـا هو نتيجة ضعف رجال مصر الذين سلمت اليهم مقاليـد الامور . واستيلاء الانكـليز على الادارات المصرية لايؤثر مطلقا على جوهر المسئلة نفسها . وحيث فشل نابليون الاول يفشل الانكليز ولا محالة

وقد علمت انكلترا أن احتلالها لمصر كان ولا يزال
ويكون مادام قائما سببا للعداوة بينها وبين الدولة العلية وان
المملكة العثمانية لا تقبل مطلقا الاتفاق مع انكلترا على بقائها
فى مصر . اذ أن مسئلة مصر بالنسبة لتركيا والخلافة تعد
مسئلة حيوية . ولذلك رأت انكلترا أن بقاء السلطة العثمانية
يكون عقبة أبدية فى طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات فى
سبيل امتلاكها مصر . وان خير وسيلة تضمن لها البقاء فى
مصر ووضع يدها على وادى النيل هو هدم السلطنة العثمانية
ونقل الخلافة الاسلامية الى أيدى رجل يكون تحت وصاية
الانكليز وبمثابة آلة فى أيديهم . . ولذلك أخرج ساسة بريطانيا
مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم
بالعصيان فى وجه الدولة العلية . ولكن العرب وغير العرب
من المسلمين أرشد من أن يخدعهم الانكليز بعد مامر من
الامور وما جرى من الحوادث . ولذلك أيضا كنت ترى
الانكليز ينشرون فى جرائدهم أيام الحوادث الارمنية مشروع
تقسيم الدولة العلية حماها الله جاعلين لانفسهم من الاملاك

المحروسة مصر وبلاد العرب أى السلطة العامة على المسلمين

والذى يبغض الانكليز على الخصوص فى جلالة السلطان الحالى هو ميله الشديد الى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الاسلامية. وهو أمر يحول بينهم وبين أسمى أمانيهم أى ايجاد الشقاق بين المسلمين وبعضهم وخروج بعض المسلمين على السلطنة العثمانية . ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الانكليز بالافراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الاعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل مافى وسعهم .

وانكلترا تعلم علم اليقين أنها لو استطاعت أن تجعل خليفة المسلمين تحت وصايتها أى آلة لها يكون لها سلطة هائلة ونفوذ لاحد له فى سائر انحاء المعمورة . فانها تستطيع عندئذ (لا قدر الله) أن تنفذ رغائبها عند المسلمين التابعين لها وغير التابعين بواسطة هذا الخليفة . ولذلك فهى بعملها على هدم السلطنة العثمانيـة تعمل على تحقيق غرض بعيد هو أكبر أغراضها وأمنية سياسية دونها كل الامانى

وكما أن مشروع الاستيلاء على السودان بواسطة مصر هو من المشروعات القديمة عند الانكليز ـ ويثبت ذلك ارسال غوردون وساموبل باكر الى آخر السودان بواسطة حكومة مصر التي أحسنت الظن بالانكليز فان مشروع جعل الخلافة الاسلامية تحت وصاية الانكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الانكليز فى هذا الموضوع ومنهم المستر بلانت المعروف فى مصر. فقد كتب كتابا قبل احتلال الانكليز لمصر فى هذا المعنى سماه (مستقبل الاسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأماني الانكليز في مستقبل الاسلام وقد كتب فى فاتحة كتابه ما نصه

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده

ليعود أحسن فى النظام وأجملا

أى ان هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل ان هذا العقد العثمانى ينثر ليعود عقدا عربيا أحسن وأجمل ـ ولكن مالم يقله المستر بلانت هو ان قومه يريدون هذا

العقد العربي في جيد بريطانيا لا في جيد الاسلام

ويبين المستر بلانت في كتابه هذا قوة العالم الاسلامى وكيف ان المدبر لاموره يكون قوياً واسع السلطة ويبين كذلك مشروع نابليون الاول وكيف انه أراد أن يكون خليفة المسلمين وان يقود قواهم — وهو يريد بذلك الفات أنظار قومه الى مشروع هم القائمون به الآن ويبين المستر بلانت ايضا « أن مركز الخلافة الاسلامية يجب ان يكون مكة وان الخليفة في المستقبل يجب ان يكون رئيسا دينياً لاملكا دنيويا » أى ان الامور الدنيوية تترك لانكلترا تدبر أمورها كيف تشاء ! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله « ان خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجا لحليف ينصره ويساعده وما ذلك الحليف الا انكلترا ! » وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الاسلام يرى — وما هو الا مترجم عن آمال أبناء جنسه — أن الاليق بالاسلام أن ينصب انكلترا دولة له ولم يبق للمستر بلانت الا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون انكليزياً ! !

يتضح جليا للقارىء مما قدمناه أن ليس للسلطنة العثمانية وبالطبع للخلافة الاسلامية فى هذه الايام عدو يجاهر بالعدوان لها ويعمل على دك أركانها وتقويض بنيانها غير انكلترا . ويمكن تعريف المسئلة الشرقية اليوم بأنها مسئلة النزاع القائم بين انكلترا وبين بقية دول أوروبا بمعافيها الدولة العلية . فان معاداة انكلترا للدولة العلية هى فى الحقيقة معاداة لكل المسيحيين ولكل المسلمين أى للعالمين الغربى والشرقى

وان واجب أروبا أمام هذه الحرب السياسية حرب الدسائس والاكاذيب القائمة بها انكلترا ضد الدولة العلية واضح جلى . فحتم عليها اذا كانت تعمل للمحافظة على السلام العام وعلى أرواح البشر أن تحبط مساعي انكلترا في الشرق وان تقف لها بالمرصاد . ومن العدل ان نقول ان حكومتى فرنسا والروسيا قامتا في المسئلة الارمنية بابطال الدسائس الانكليزية واحباط مساعى سواس انكلترا . وأظن أنه لم يغب عن ذهن انسان ان انكلترا عرضت رسميا على الدول الاوروبية خلع جلالة السلطان الاعظم فرفضت الروسيا وفرنسا

طلب انكلترا قبل كل الدول . وقد قامت المانيا فى الحرب الاخيرة بواجب أوروبا كلها ضد انكلترا فتم للدولة العلية الظفر والنصر وتم لبريطانيا الفشل والخذلان

أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انكلترا للدولة العلية فبين لاينكره الا الخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين ان يجتمعوا جميعا حول راية السلطنة السنية وان يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم فى هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لاعبيدا . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة وأن يعززوها بالاموال والارواح ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية المقدسة

المسئلة الشرقية

في

القرن الثامن عشر

لقد حدثت فى القرن الثامن عشر أزمة شديدة مهمة للمسئلة الشرقية هى الحرب بين الدولة العلية والروسيا التى طالت من أواخر عام ١٧٦٨ الى أوائل عام ١٧٧٥ وهذه الازمة كانت شديدة غزيرة النتائج وأصلا لتداخل أوروبا فى أمور الدولة العثمانية باسم الدين

وقد كانت الروسيا حليفة للبروسيا فى ذلك العهد محالفة أمضى عليها فريدريك الكبير ملك بروسيا وكاترينا امبراطورة الروسيا يوم ١١ ابريل سنة ١٧٦٤ وكان أجلها ثماني سنوات. وسبب تداخل البروسيا في المسائل الشرقية هو تحالفها مع الروسيا نحو قرن . وداعية هذا التحالف هى العداوة الشديدة التى كانت بين النمسا والبروسيا فى المانيا وبين النمسا والروسيا في مسائل الشرق . وقد كان يعقد أحيانا اتفاق بين تلك

الدول الثلاث ولكن العداوة بقيت طويلا بالرغم عن هذه شديدة بينها وبين بعضها

ومن أسباب تحالف الروسيا والبروسيا غير ماذكرناه اشتراكهما فى المصلحة ضد بولونيا التى كانت جمهورية وقتئذ وفي حالة من الفوضى عظيمة. وقدكان يروق للروسياوالبروسيا بقاء نفوذهما قويا فى بولونيا والعمل على زيادة الفوضى فيها لتتمكنا من تقسيمها والاستيلاء عليها

وكان قد عقد بين فرنسا والنمسا عام ١٧٥٦ تحالف يضمن للنمسا مساعدةفرنساالحربية والسياسية فى كل أوروبا ويضمن لفرنسا عدم تداخل النمسا ضدها فى حالة قيام الحرب بينها وبين انكلترا . وقد حصل وقتئذ أن (أوجست الثالث) ملك جمهورية بولونيا توفى وأرادت الروسيابالاتفاق مع البروسيا أن تعين بدلا عنه (ستانيسلاس أوجست بونياتووسكى) الذى كان محبوباً عند كاترينا امبراطورة الروسيا وعاشقا من أكبر عشاقها وكانت ترمى الروسيا بهذا التعيين الى القاء بذور الشقاق والشحناء بين البولونيين

واحداث الاضطرابات فى بلادهم بواسطة هذا الملك الجديد

فعمل عندئذ الوطنيون البولونيون لدى الباب العالى مستغيثين به لاحباط مساعى الروسيا فى تعيين (ستانيسلاس) ولكن سفيرا الروسيا والبروسيا بالاستانة بذلا ضد هؤلاء الوطنيين كل جهدهم

وكان من صالح النمسا وفرنسا عدم نجاح الروسيا والبروسيا فى مسعاهما لتعيين (ستانيسلاس) فحرضتا الدولة العلية ضد الروسيا والبروسيا وأظهرتا لها فائدة تداخلها فى صالح البولونيين ولكن المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) كان يعجب بفريدريك ملك البروسيا اعجاباً زائداً فلم يرض لذلك العمل ضده . سيما وان تعيين (ستانيسلاس) كان لايضر بمصالح الدولة مطلقا . فتم تعيين هذا الرجل ملكا لبولونيا يوم ٧ سبتمبر سنة ١٧٦٤

وما استقر هذا الرجل على كرسىّ ملك بولونيا حتى خلق فيها المشاكل والاضطرابات طبقاً لرغائب كاترينا وسهل لها التداخل فى شؤونها الداخلية . فطلب عندئذ بتاريخ

٢٥ نوفمبر من السنة نفسها سفيرا الروسيا والبروسيا من حكومة بولونيا جملة طلبات تخالف المصلحة البولونية فرفضها مجلس نواب بولونيا وكان رفضه هذا سببا لتداخل الروسيا فدخلت بولونيا بجيوشها الجرارة وأسالت الدماء وأنحت على الكثيرين من الابرياء واستمرت الثورات فى بولونيا تباعا والعالم كله ناظر اليها بلا حراك حتى بلغت الروسيا مرامها من هذه الديار التعسة وصارت بولونيا مستقلة فى الظاهر محكومة في الباطن بأهواء الروسيا وأغراضها

وفى هذه الاثناء تعين المسيو (شوازيل) وزيرا لخارجية فرنسا وكان ألد أعداء الروسيا . وعلى الخصوص كان عدوا شخصياً لكاترينا فكتب الى المسيو «دى فرجين» سفير فرنسا من الاستانة يأمره بعمل كل مافى سعته لخلق المشكلات بين الدولة العلية والروسيا وأرسل اليه ثلاثة ملايين من الفرنكات ليشترى بها ذمم بعض رجال الدولة وكان الوطنيون البولونيون حين ذاك يستغيثون بالدولة ليلا ونهاراً

وحصل ان بعض قسوس الروسيا جاءوا بلاد الدولة وأخذوا يهيجون أهالى اليونان وكريد والجبل الاسود باسم الدين حاملين بأيديهم وعلى صدورهم الصليب . وقام وقتئذ قسيس اسمه « ستيفانو بيكولو » فى شهر اكتوبر عام ١٧٦٧ يدعو أهالى الجبل الاسود للقيام ضد المسلمين فهاجت الاهالى هياجاً شديدا

فلما رأت الدولة ذلك ووقفت على الفظائع العديدة التى جرت فى بولونيا أنذرت الدولة الروسية بالخروج من بولونيا فرفضت وكان ذلك سبب الحرب

وقد كانت الامة العثمانية ميالة الى البولونيين حتى ان المسيو « زيجلين » سفير بروسيا بالاستانة كتب الى حكومته بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٧٦٨ يقول « انه وان كانت الحكومة العثمانية مطلقة النفوذ والسلطة في بلادها ولكن للرأى العام صوتا اذا ارتفع لاتقدر الحكومة على مخالفته »

وعند ماعلمت الروسيا باستعداد الدولة العلية للحرب أرسلت عساكرها واحتلت « كاركوفيا » . وقد أعلنت

الحرب يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٧٦٨ وكان ذلك بالقاء الدولة العلية سفير الروسيا فى القصر المعروف (بقصر السبعة أبراج) وبهذه الصورة كانت تعلن الحرب فى القرن الماضى

وقد أرسلت الدولة عندئذ منشوراً للدول الاوروبية بتاريخ ٣٠ اكتوبر سنة ١٧٦٨ أبانت فيه أسباب اعلانها الحرب للدولة الروسية قائلة « لقد تجاسرت الروسيا وقضت على حرية بولونيا وأجبرتها على قبول ملك ليس من عائلة ملوكية ولم تنتخبه الامة ملكا عليها طبقا لقوانينها وشرائعها. وأسالت الروسيا الدماء وذبحت كل من خالف سياستها وأغراضها وخربت الاراضى والاملاك »

وقد أدهش اعلان الحرب بهذه الصورة كل رجال السياسة الاوروبية وجعل كل همه الانتفاع منها . أما المسيو (دى فرجين) سفير فرنسا فقد أعاد الى حكومته الثلاثة ملايين وكتب اليها « ان رجال تركيا لاتشترى ذممهم لانهم يعملون بمقتضى مصلحة بلادهم وشرف دولتهم » .

ومضت أشهر طويلة اشتغل فيها كل خصم بالتجهيز

والتحضير ولم تقم الحرب الحقيقية الا فى شهر يوليو عام ١٧٦٩ على شواطىء نهر (الدينستر) وقد اقتتل الجيشان طويلا حول (خوتين) واختلف المؤرخون فى اثبات وجود فرق بروسية بين الجيش الروسى فقال بعضهم بوجودها بمقتضى المعاهدة التى بين الروسيا والبروسيا وأنكر البعض الآخر وجودها . ولكن الرأى الاول أقرب الى العقل والحقيقة

وفى يوم ١٦ سبتمبر هجم الجيش العثمانى على الجيش الروسى ووقعت بينهما معركة هائلة انتهت بانتصار الروسيين واستيلائهم على مقاطعة (البغدان) . وأخذوا بعد هذه الواقعة قلاع خوتين وأزوف وتاجا نروج . ثم احتلت العساكر الروسية يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٦ مدينة (بوخارست) التى هى عاصمة رومانيا الحالية . أما مقاطعة البغدان فهى تكوّن مع مقاطعة الافلاق مملكة رومانيا نفسها

وقد اغترت الروسيا بهذا الانتصار وأرادت فصل اليونان من أملاك تركيا — وكانت أرسلت من قبل بطلا اسمه (أورلوف) ليهيج اليونانيين ضد الدولة العلية — فأرسلت

فى البحر الابيض المتوسط في آخر سنة ١٧٧٠ أسطولين الاول تحت (قيادة سبيروتوف) الروسي والثانى تحت قيادة (ألفنستون) الانكليزى وقد تجمعت عندئذ جماعات اليونان وتظاهرت بالقيام فى وجه الدولة ولكنها تفرقت شذر مذر عند تقدم الاتراك والالبانيين . فرجعت الروسيا بخفي حنين ويئست من تخليص اليونان فى ذلك الحين

ثم أرادت الروسيا أن تنتقم من الدولة العلية لفشل مساعيها فى اليونان فعاكست مراكبها وأسطولها ولم تأخذ بعد حرب وقتال عنيفين الا بعض السفن العثمانية في « تشمسه »

*
* *

ولقد كانت سياسة كل دولة من الدول الاوروبية فى هذه الحرب مختلفة عن الاخرى . فكانت فرنسا مصادقة للدولة العلية ومعادية للروسيا وكانت الدولة الوحيدة المنتصرة لبولونيا . ولكن صداقتها للدولة العلية وانتصارها لبولونيا لم ينتجا أقل نتيجة لان الدول الثلاث الروسيا والبروسيا والنمسا

اتفقت فى آخر الامر كما سيراه القارىء على تجزئة بولونيا فكان من المستحيل على فرنسا مساعدة تركيا مساعدة فعلية خوفا من اشتعال نار الحرب بينها وبين الدول الاوروبية . ولكن ما كانت تخافه لنفسها تشجع الدول العلية على الاتيان به فهى كانت تخشى الحرب ولكنها كانت أول محرضة للدولة العليـة عليها . وهكذا الدول كلها والامم جميعها متى رأت فى عمل من الاعمال احتمال الخير والشر تفضل أن يقوم به غيرها فان أنتج خيراً استفادت منه وان أنتج شرا اجتنت أضراره وكان « شوازيل » وزير فرنسا الاكبر ذا سياسة خرقاء حيث كانت النمسا ساخرة من تحالفها مع فرنسا لا تقبل منها نصيحة ولا تسمع لها رأيا . وكانت سياسة « شوازيل » ترمى الى اضعاف الروسيا وتركيا فى آن واحد كما يتضح ذلك جليا من مذكرة رسمية أرسلها في شهر دسمبر عام ١٧٦٩ الى البرنس (كونيتز) وزير النمسا وجاء فيها (وترى فرنسا أن أحسن شيء يعود على تحالفنا (أي تحالف فرنسا والنمسا) بالفائدة هو ان تستمر الحرب بين الروسيا وتركيا مع

انتصارات متبادلة من الجانبين حتى يضعف الخصمان بدرجة واحدة . واذا ساعدتنا الايام تكون لنا الفرص كلها والفوائد أجمعها)

أما النمسا فكانت قد عقدت مع الروسيا فى عام ١٧٥٣ معاهدة ضد الدولة العلية ولكنها بطلت عام ١٧٦٢ بسبب تحالف الروسيا مع البروسيا ولما أعلنت الحرب بين الدولة العلية والروسيا عام ١٧٦٨ اتبعت النمسا فى بادىء الامر سياسة الحياد مع مسألة الدولة العلية

وفي ختام عام ١٧٦٩ كلفت النمسا سفيرها فى الدولة العلية المسيو (توجوت)أن يعرض على وزراء جلالة السلطان رغبة النمسا للتداخل فى عقد الصلح بين المتحاربين . ولم تكن رغبة النمسا الحقيقية من هذا التداخل عقد الصلح بل كان غرضها الوصول الى امتلاك مقاطعة من أملاك تركيا وتوسيع نطاق المملكة النمساوية

وسيجد القارىء فى خلال هذا الفصل الخطة التي جرت عليها النمسا مع الدوله العلية وكيف انها حالفتها ضد الروسيا

وعملت فى الوقت نفسه على الاتفاق مع الروسيا ضد تركيا ! !!

وأما البروسيا فقد كان ملكها وقتئذ « فريدريك الكبير » المشهور بدهائه السياسى وقدرته الفائقة على الاستفادة من كل حادث أوروبى . وقد جعل سياسته فى المسئلة الشرقية الاستفادة من الحرب بين الدوله العلية والروسيا مع المحافظه على استقلال الدوله العلية . وكتب فى مذكراته السياسية الشهيرة « انه يوجد لنا طريقتان أمام تقدم الروسيا واتساع أملاكها . الاولى ايقافها فى تقدمها وفتوحاتها . والثانية ـ وهى أحكم طريقة ـ الاستفادة من تقدمها واتساع أملاكها وفتوحاتها بمهارة » وقد اتبع فريدريك الكبير الطريقة الثانية كما كتب فى مذكراته فكان متحالفا مع الروسيا وعلى تمام الصفاء مع تركيا وبذلك كان يستفيد اكثر من غيره .

ولما قامت الحرب بين الدولة العلية والروسيا كان اشتغال فريدريك الكبير منحصرا فى الوقوف على الخطة التى ستجرى عليها النمسا . هل تبقى وفية لفرنسا حليفتها أى مصافية لتركيا وبولونيا أو تنخدع للروسيا فيفقد التحالف

الروسى البروسى أهميته الاولى . وقد وجد عندئذ فريدريك بدهائه الغريب وذكائه العالى طريقة مثلى لفصل النمسا من فرنسا ولمنعها من معاداة الروسيا فى الشرق وفى بولونياولبقاء التحالف الروسى البروسى بأهميتـه الاولى . فوضع لذلك مشروع تحالف ثلاثى بين الروسيا وبروسـيا والنمسا يكون غرضه حل المسئلة الشرقيـة لافى تركيا نفسها بل فى بولونيا بأن تقسم هذه المملـكة بين هاته الدول الثلاث

وهذه الامنيـة كانت أكبر أمانى فريدريك الـكبير أيام حكمه لانه كان يرى في تقسيم بولونيا ربحا كبيرا للبروسيا واتساعا لنطاقها بضم بولونيا البروسية لها

وأول مرة فاتح المسيو (سولمس) سـفير بروسيا فى سان بطرسبورغ المسيو (بابين) وزير الروسـيا الاكبر في مسـئلة تقسيم بولونيا كان جواب الوزير الروسى ان تحالف الدول الثلاث يجب أن يرمى أيضا الى تقسيم الدولة العلية . فلما سمع فريدريك هذا الجواب تخوف منـه وأهمل أمر التحالف الثلاثى فى الظاهر

وقد قلنا ان فريدريك الكبير كان يرى في بقاء الدولة العلية فائدة عظمى لبروسيا وكان يستطلع بحدة ذهنه وقوة بصيرته من خلال الايام الآتية ان مودة الروسيا للبروسيا لاتدوم أبد الدهر وإن بقاء الدولة العلية قوية يكون كحاجز حصين امام الروسيا وكصخرة عالية واقفة امامها وبالجملة تكون للبروسيا قوة عظيمة يمكن الاعتماد عليها حسب مقتضى الحوادث

وقد برهنت الايام على ان فريدريك الكبير — وهو أول عامل على توسيع نطاق بروسيا وأول واضع لمشروع الوحدة لالمانية الذى تم على يدى غليوم الاول وبسمارك — نظر نظرة بصير لجاء من سلالته جلالة الامبراطور غليوم الثاني مدركا أهمية التودد للدولة العلية وتوثيق الروابط بينه وبينها فاستفاد العالم من هذه المودة المزدوجة واستفادت المانيا منها كثيراً

ولما علم فريدريك الكبير بجواب وزير الروسيا تخوف منه كما قدمنا ولكنه لم يرجع عن عزمه الاول وهو

العمل على تقسيم بولونيا . فرأى لنوال هذه البغية أن يتحبب الى النمسا ويتحد معها اتحاداً سريا يوقع الروسيا فى الارتباك والبلبال فتضطر الى قبول آرائه وتدرك فائدة التحالف معه والعمل بنصائحه . وبالفعل تقابل فى مدينة (نيس) مع (جوزيف الثاني) امبراطور النمسا وابن (مارى تيريزيا) الشهيرة وتوصل الى عقد اتفاقية ودية معه فى شهر أغسطس عام ١٧٦٩

فكانت نتيجة هذه الاتفاقية ان الروسبا صارت فى بلبال زائد كما أراد فريدريك . فانها كانت تجهل مضمونها وكانت تظن انها اتفاقية عقدت للعمل ضدها فى المسئلة الشرقية فاضطرت الى تجديد محالفتها مع البروسيا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٦٩ واشترط جعل أجلها ممتدا الى غاية عام ١٧٨٠ فنالت بذلك البروسيا ما كانت تتمناه وهو ان الروسيا عرفت مقدار تحالفها معها وصار لآرائها عندها تقدير القبول والرضى وباتفاقها مع النمسا اتفاقية ودية صارت حليفة الروسيا وصديقة النمسا ووضعت بذلك الاساس لمشروعها

العظيم . أى مشروع تقسيم بولونيا بين الدول الثلاث

وقد بعث فريدريك الكبير بأخيه البرنس هنرى الى سان بطرسبورغ لزيارة القيصر فوصل عاصمة الروسيا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٧٠ وقد تحادث كثيراً مدة وجوده فى بطرسبورغ مع القيصرة ورجال السياسة الروسية فى مشروع عقد تحالف ثلاثى بين الروسيا والبروسيا والنمسا بقصد تقسيم بولونيا . فوجد لهذا المشروع قبولا عند الروسيين لم يكن عندهم من قبل

وقد بذلت البروسيا فى ذلك الحين جهدها في اقناع الدولة العلية بضرورة ايقاف الحرب والتوسط فى الصلح حتى رضيت الدولة العلية وطلبت بمذكرة تاريخها ١٢ أغسطس سنة ١٧٧٠ من بروسيا والنمسا التوسط بينها وبين الروسيا فى أمر عقد الصلح

يرى القارىء مما تقدم سياسة كل من دول فرنسا والنمسا والبروسيا فى المسئلة الشرقية فى القرن الثامن عشر أما انكلترا فقد جرت فى هذا القرن الماضى على سياسة

مزدوجة . فكانت تساعد الروسيا فى الحرب كل المساعدة وتظهر للدولة العلية بمظهر الصديقة لتقف على أسرارها حيث تطلع الروسيا عليها . ولما قامت الحرب بين الدولتين العلية والروسية كانت انكلترا مشتغلة بأمور الهند التى كانت استولت عليها منذ بضع سنين من قبل

ولما كانت الروسيا مصافية لانكلترا وغير ميالة وقتئذ للاستيلاء على الهند وسلبها من أيدى الانكليز وكانت فرنسا هي العدوة اللدودة لانكلترا والدولة الوحيدة التي كانت تخاف منها انكلترا على الهند ـ وقد كانت الهند من قبل ملكا لفرنسا ومستعمرة من مستعمراتها ـ اتبع الانكليز سياسة التقرب من الروسيا والتودد اليها ومعاداة فرنسا والدولة العلية

وفضلا عن الاسباب السياسية الداعية لذلك فهنالك أسباب تجارية دفعت الانكليز لمحاباة الروسيا فقد كانت انكلترا تتاجر وحدها فى الشمال وكانت واردات الروسيا كلها من انكلترا . وكان الكثيرون من البحارة الانكليز موظفين فى المراكب الروسية . وقد أراد (شوازيل) وزير

فرنسا الاكبر أن يضرب المراكب الروسية بالعمارة الفرنساوية وقدم بذلك مذكرة لمجلس نظار فرنسا ولكنها رفضت وقبل رفضها أعلنت وزارة لندره ان كل عمل يعمل ضد الروسيا يعد اهانة لانكلترا واعتداء عليها . وهو قول يبين مقدار ميل الانكليز للدولة الروسية فى ذلك الحين أو بعبارة أصرح يبين مقدار المكاسب العظيمة التى كانت تكسبها انكلترا من الروسيا

ومن اكبر الاسباب التى جعلت انكلترا ضعيفة الصوت فى مسائل الشرق فى ذلك الحين هو اضطراباتها الداخلية وقيام الامريكيين بالثورة ضدها مطالبين بالاستقلال الذى نالوه بدماء أبطالهم أى بأعز الاثمان

ومن غريب أمر السياسة الانكليزية انها مع محاباتها للروسية كل المحاباة أرادت أن تظهر لتركيا بمظهر الصداقة كما قدمنا فعرضت عليها في صيف عام ١٧٧٠ أن تتداخل بينها وبين الروسيا لعقد الصلح فأجابت الدولة العلية سفير انكلترا بالاستانة (السير مورى) بمذكرة حكيمة جاء فيها « انه لمن الامور المدهشة الخارقة للعادة ان انكلترا تعرض

على الباب العالى توسطها فى الحرب مع ان لها سفنا في الاسطول الروسى حاربت ضدنا . ولذلك نحن نعتقدان طلبها التوسط فى الحرب ليس الا ستارا لاغراض أخرى ينويها العدو (أى الروسيا) . فلتعلن انكلترا خطتها وسلوكها بدون مراوغة حتى يعلم الباب العالى مع أى المتحاربين هى أمعه أو ضده ؟ ؟ . وقد أحدثت هذه المذكرة الحازمة تأثيرا شديداً لدى الانكليز وأفهمتهم أن الاتراك خبيرون بسياستهم وبما فيها من الغش والنفاق فاضطروا لسحب ضباطهم وعساكرهم من الاساطيل والجيوش الروسية ولكن ذلك جاء بعد ان قضت الحرب معظمها

ولما طلبت الدولة العلية من بروسيا والنمسا التوسط فى أمر الصلح أبلغت انكلترا الروسيا هذا الطلب لتأخذ حذرها فكانت وظيفة انكلترا فى هذه المسئلة اشبه بوظيفة جاسوس على الدولة العلية للروسية

*
* *

ولما علمت الروسيا بواسطة الانكليز بأمر طلب الصلح

أرادت أن تعرقل مساعي البروسيا والنمسا فأمرت الجنرال رومانتسوف بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٧٠ ان يكتب الى الصدر الاعظم بأن الروسيا مستعدة للمناقشة مع الباب العالى مباشرة فى أمر الصلح متى أطلق سراح (أوبرسكوف) سفير الروسيا فى الاستانة . وبذلك منعت الروسيا البروسيا والنمسا من التداخل فى أمر الصلح مدعية بأن تداخل هاتين الدولتين يدعو لتداخل فرنسا . وهو الامر الذى ترفضه القيصرة رفضا باتا

وفى هذه الاثناء استولى الجيش الروسى على مدينة بندر واكرامان وبرايلا . ولما طال أمر المراسلات بشأن الصلح بين فريدريك وكاترينا كتبت قيصرة الروس الى ملك بروسيا بتاريخ ٢٠ سبتمبر من السنة نفسها توضح له الشروط التى تشترطها لعقد الصلح . وهى الاستيلاء على أزوف وكاباردا مع استقلال البغدان والافلاق أو بقاء هاتين المقاطعتين تحت حكم الروسيا مدة ربع قرن كغرامة حربية . واستقلال ترتار البسرابى والقرم وحرية الملاحة فى البحر الاسود والتنازل

عن جزيرة للروسيا فى الارخبيل وعفو عام عن كل اليونانيين الذين ثاروا ضد الدوله العلية أثناء الحرب

فلما أطلع فريدريك على هـذه الشروط اندهش غاية الاندهاش من مطالب الروسيا وأطماعها . وقد حصل وقتئذ أن رئيس أفندى (وهي وظيفة كانت فى الدولة العلية بمثابة وظيفة ناظر الخارجية) أخبر سفيرى النمسا وبروسيا ان الدولة العلية لا تقبل المخابرة مع الروسيا مباشرة بشأن الصلح ولكنها تقبل توسط النمسا والبروسيا وأبلغهما أنه أعلن ذلك للجنرال رومانتسوف

وقد كتب فريدريك لما اطلع على شروط الصلح المبعوثة اليه من القيصرة الى أخيه البرنس هنرى — الذى كان لا يزال بسان بطرسبورغ — بتاريخ ٣ يناير سنة ١٧٧١ « لقد اندهشت اندهاشا عظيما لما اطلعت على الشروط التى تقدمها الروسيا للصلح وانه يستحيل على أن أقدمها للاتراك أو للنمساويين لانها شروط لا يمكن قبولها » وأبان فريدريك فى كتابه لاخيه أن هذه الشروط لا يمكن لدول أوروبا قبولها

وانها تعتبر اعلان حرب للنمسا . وقد كتب بنفسه للقيصرة بتاريخ ٥ يناير سنة ١٧٧١ انها اذا كانت تريد اجتناب الحرب مع النمسا يجب عليها أن تكتفي بأخذ أزوف والكاباردا وبحرية الملاحة في البحر الاسود

وفي أثناء ذلك كانت القيصرة كاترينا تتحدث مع البرنس هنري بسان بطرسبورغ في أمر تقسيم بولونيا . فلما كتب البرنس هنري الى أخيه بذلك سر ملك بروسيا حيث جاء هذا الامر موافقا لرغائبه . واجتهد في جعل حل المسئلة الشرقية في بولونيا فقط لعلمه بما لبقاء الدولة العلية من اللزوم والاهمية . فأراد تقسيم بولونيا على شرط أن الروسيا لا تأخذ البغدان والافلاق

وقد جرى عندئذ ان النمسا طمحت لمحالفة تركيا ضد الروسيا والعمل للاستفادة من هذه المحالفة ولو ضد تركيا نفسها . فبعث (كونيتز) رئيس الوزارة النمساوية الى المسيو «توجوت» سفير النمسا في الاستانة يأمره بمخابرة رجال الدولة العلية في أمر عقد محالفة بين النمسا وتركيا يشترط

فيها ان تركيا تدفع سنويا للنمسا ٣٤ مليونا من الفلورينو أي فوق الثلاثة ملايين من الجنيهات . وان تتنازل لها عن (الافلاق) ومدينة بلغراد وان تجعل للنمساويين فى ممالك الدولة العلية أهم الامتيازات التجارية . وفضلا عن كل هذه الشروط تقدم للنمسا فى حالة الحرب من خمسين الى ستين ألف مقاتل . وتشترط النمسا على نفسها مقابل ذلك أن تحارب الروسيا مع تركيا اذا لم ترض القيصرة بطريق المخابرات اعادة البلاد التى استولت عليها الى الدولة العلية

وقد سعى (كونيتز) عندئذ لدى فريدريك ملك بروسيا أن يبقى على الحياد اذا قامت الحرب بين النمسا والروسيا ولكن فريدريك اتبع طريق المراوغة فلم يجب بجواب صريح

أما فرنسا حليفة النمسا فكانت تعمل في هذا الحين على مساعدة تركيا بأسطولها مقابل عوض مالى . ولكن (توجوت) سفير النمسا (الذى كان يكاتب سرا الحكومة الفرنساوية كجاسوس لها مقابل أجرة شهرية وكان فى

الحقيقة يغشها ولا يخدم الا مصلحة النمسا وطنه) بذل أقصى جهده من حين علم بهـذا المشروع على احباط مسعى فرنسا فأبان لرجال الدولة العلية انمساعدة الاسطول لاتفيدشيئاما لان الحرب برية محضة لابحرية . وان قصـد فرنسا ليس مساعدة الدولة العلية بل معاداة الروسـيا ومد أمد الحرب الى ماشاء الله . فأفلح (توجوت) واقتنع رجال الدولة بصدق أقواله وصحة أفكاره ورفضوا مشروع فرنسا

وقد كان رجال الدولة العلية يؤملون ان اتفاق فرنسا مع الدولة يحمل النمسا (حليفة فرنسا) على مساعدة تركيا . ولـكن النمسا كانت تخشى هذا الامر لما فيه من التقيد لها ولعلمها بانها لاتستطيع أن تخـدع تركيا اذا كانت فرنسا متحدة معها بخلاف ماذا كانت هي المتحدة مع الدولة العلية دون غيرها . ولذلك كان فشل مشروع فرنسا مضرا بالدولة العلية مفيدا للنمسا حليفة فرنسا !!!

ولما فشـل مسعى فرنسا عمل (توجوت) على عقـد التحالف بين النمسا وتركيا . ومن حسن حظ النمسا وقتئذ

ان خضعت تاتار بلاد القرم للروسيا وصارت كتاتار البسرابى فاضطرت الدولة بهذا السبب لتعجيل الاتفاق مع النمسا وقبول معاهـدة التحالف . فأمضت المعاهـدة مساء يوم ٦ يوليو سنة ١٧٧١ . وشروط هذه المعاهدة ان النمسا تتعهد بمساعدة تركيا ضد الروسيا وعدم سلخ أى جزء من الاملاك العثمانية والمحافظة على استقلال بولونيا مراعاة لشرف الدولة العلية . وان تتعهد تركيا بدفع مبلـغ ١١٣٥٠٠٠٠ فلورينو للنمسا (لا ٣٤ مليونا كما طلبت النمسا أولا) أى نحو المليون جنيها وبالتنازل للنمسا عن أراضى (الافلاق) . وبمساعـدة الرعايا النمساويين فى بلاد الدولة العلية على ترويج تجارتهم وصنائعهم واشـترط بين الدولتين المتعاهدتين ان هذه المعاهدة يكتم أمرها خصوصاً على فرنسا حليفة النمسا اذ ذاك

وقد رفع (توجوت) صورة هذه المعاهدة الى حكومة دولته وطلب التوقيع عليها

فلما وصلت صورة المعاهدة الى (كونيتز) اطمأن من جهة الدولة العلية وأخذ يهدد الروسـيا مؤملا بهذا التهديد

حملها على مخابرته في شأن تقسيم الدولة العلية . وقد كان ذلك وأرسلت الروسيا الكونت (ماسين) حاملا لجملة مشروعات تختص بالدولة العثمانية ومكلفا من قبل القيصرة بعرضها على (كونيتز) . ومن ضمن المشروعات مشروعان يشتملان على عقد اتحاد بين النمسا والروسيا يكون غرضه الوحيد اخراج الاتراك من أوروبا وتقسيم الدوله العلية . فالمشروع الاول يبين صورة تقسيمها بين الدولتين بأن تأخذ النمسا صربياً والبوسنه والهرسك والبانيا ومقدونيه ويترك للروسية بقية أملاك الدوله العلية بما فيها الاستانة . وفى المشروع الثاني تأخذ النمسا الافلاق وصربيا وبلغاريا والهرسك وتأخذ الروسيا مقدونيه والبانيا ورومانيا وقسما عظيما من الارخبيل وآسيا الصغرى والاستانة . وتأخذ كذلك الروسيا الاراضى الواقعة على شمال الدانوب وشواطىء البحر الاسود . أما بلاد القرم والموره فتبقي مستقلة

والمشروع الثالث يتضمن بقاء الترك على الشاطىء الشمالى للدانوب واعطاء صربيا والبوسنه والهرسك للنمسا

وما على شواطىء البحر الاسود للروسيا مع استقلال التاتار وقدم الكونت (ماسين) غير ذلك مشروعات أخرى تتعلق بتقسيم بولونيا بين الروسيا والنمسا والبروسيا

وقد اطلعت النمسا على هذه المشروعات كلها وتباحثت فيها واحداً بعد آخر فى وقت كانت تعد فيه متحالفة مع تركيا تحالفا يقتضى رد الروسيا عن أملاك الدوله العلية وبقاء تركيا سليمة كما كانت قبل الحرب والمحافظة على احتلال بولونيا..

وبينما كانت النمسا تتباحث فى هذه المشروعات الغريبة كان فريدريك الكبير ملك بروسيا يسعى لتقسيم بولونيا مع بقاء مقاطعات الدانوب تحت سلطة الدوله العلية . أى لحل المسئلة الشرقية فى بولونيا كما قدمنا

أما الدولة العلية فقد قامت بما تعهدت به نحو النمسا وأرسلت الى حكومة فيينا بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٧٧١ جانباً من مبلغ المليون جنيه الذى فرضته على نفسها . وقد طلبت الدولة العلية جملة مرات التوقيع على معاهدة التحالف غير أن النمسا كانت تهمل طلب الدولة رغبة منها فى الوصول

الى نوال مآربها وأغراضها بدون حرب وقتال . وقد كانت سياسة (كونيتز) ترمى الى عقد اتفاق يفيد النمسا فائدة عظمى امامع الروسيا ضد تركيا أو مع تركيا ضد الروسيا . فلذلك كان يؤجل كل مرة أمر التوقيع على معاهدة التحالف مع تركيا أملا منه فى الوصول الى عقد اتفاق مع الروسيا يكون أكبر فائدة وأعظم نفعا . وكان يخشى (كونيتز) انه اذا أمضى على معاهدة الاتحاد مع تركيا تقسم الروسيا والبروسيا بلاد بولونيا بين دولتيهما بدون أن تأخذ النمسا شيأ منها

ولما رأى كونيتز أن الدولة العلية تلح كثيرا فى أمر التوقيع على عهدة التحالف كتب الى الحكومة العثمانية بتاريخ ٤ . ا كتوبر سنة ١٧٧١ كتاب صدق واخلاص قال لها فيه « ان دولته محافظة على عهودها وفية فى تحالفها » ولكنه لم يرسل مع ذلك بالعهدة موقعا عليها

وفى هذا الاثناء علم سفير انكلترا بالاستانة اللورد (مورى) بأمر المبلغ الذى أرسلته الدولة العلية للنمسا فأخبر

سفير دولته فى باريس وهذا أخبر سفير البروسيا بها .
فلما علم فريدريك الكبير بهذا الخبر بعث به فى الحال الى القيصر وكتب الى سفيره بالاستانة يأمره بأن يرشد وزراء الدولة العلية الى حقيقة أغراض النمساويين ويبين لهم انها تعمل للاضرار بمصالح حكومة جلالة السلطان .
وكتب كذلك فريدريك الى سفيره بباريس يأمره أن يعرض على الوزارة الفرنساوية أن تطلب عقدمؤتمر بالاستانة لعقد الصلح بين الروسيا وتركيا كل ذلك قصد به فريدريك الكبير أن يظهر النمسا لدول أوروبا بمظهر الدولة الخداعة فى ودها الخائنة لعهودها مع تركيا وفرنسا في آن واحد

وقد كانت الحرب مع تركيا أضعفت الجيوش الروسية كثيرا وقتالها فى بولونيا جعلها في أشد حاجة للراحة والسكينة فضلا عن أن المال كان ينقص وقتئذ الدولة الروسية .
فكتبت (كاترينا) امبراطورة الروسيا بتاريخ ٦ دسمبر سنة ١٧٧١ الى فريدريك الكبير ملك بروسيا تخبره أنها تنازلت عن مطالبها بشأن « البغدان والافلاق » ولكنها

تطلب من تركيا التنازل لها عن بعض مدائن منها « بندر »
و « أو تشا كوف » وتعلمه بأنها قبلت تقسيم بولونيا واعطاء
البروسيا ماطلبته منها أى بولونيا البروسية و (فارميا) وتطلب
القيصرة مقابل ذلك من ملك بروسيا أن يسير عشرين الف
جندى على مقاطعتى (الافلاق والبغدان) اذا قامت النمسا
بمحاربة الروسيا

وعند وصول هذا الكتاب الى فريدريك الكبير ملك
البروسيا كان همه موجها الى تقسيم بولونيا وتوسيع دائرة
أملاك بلاده ففرح غاية الفرح بكتاب القيصرة . وانتهى
الامر باتفاق الروسيا والبروسيا علي تقسيم بلاد بولونيا
التعسة . وصارت النمسا بهذا الاتفاق بين أمرين اما الوفاء
بالعهد لتركيا وفرنسا ومعارضة مشروع تقسيم بولونيا واما
الاتفاق مع الروسيا والبروسيا وعدم احترام عهودها نحو
تركيا وفرنسا . فاختار كونيتز الامر الثانى عاملا بالمبدأ
السياسى القائل « بأن لاعهد ولا شرف فى السياسة » .
ووافق الامبراطور جوزيف والامبراطورة مارى تيريزيا

والدته على خطة كونيتز . وكان ذلك فى أوائل عام ١٧٧٢

وفى يوم ٢٨ يناير سنة ١٧٧٢ كتب (كونيتز) الى حكومة الروسيا يبلغها قبول النمسا لمشروع تقسيم بولونيا ولمطالب القيصرة نحو الدولة العلية . مظهراً أمله وأمل حكومته فى أن النمسا تأخذ من أملاك الدولة العلية شيئا كما أخذت من بلاد بولونيا أى أن تقسم الدولة العثمانية كما قسمت بولونيا !!

وبذلك يرى القارىء أن النمسا بعد ان تحالفت مع تركيا على ان ترد الروسيا عن أملاكها بواسطة المخابرات السياسية أو بواسطة الحرب وان تدافع عن استقلال بولونيا. وبعد ان قدمت اليها الدولة العلية ماطلبت من المال . عرضت بنفسها على الروسيا والبروسيا فى يناير عام ١٧٧٢ تقسيم بولونيا وتجزئة الدولة العلية !!

وهى نتيجة اعترفت (مارى تيريزيا) نفسها بانها لاتشرف المملكة النمساوية . وقالت عنها فى رسائلها السياسية « انها سياسة جرت عليها النمسا ضد الشرف وضد مجد

المملكة وضد الذمة والعقيدة » .

وقد تم اتفاق الروسيا والبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا وانتهى الامر بتقسيم هذه المملكة بفضل دسائس الدخلاء وانقسام أهلها على بعضهم . وذهبت هذه الأمة البولونية الشريفة المشهورة بالوطنية الفائقة والشهامة العظيمة ضحية مطامع الدول الثلاث وفريسة الدسائس الاجنبية والشقاق الاهلى

وقد امتنعت الدولة العلية عن ارسال المدد المالى للنمسا لما رأت تلاعبها معها وتلونها في سياستها . فجعل (كونيتز) عدم ارسال المدد المالى سببا لحل التحالف بين دولته وتركيا!

ولما علمت الدولة العلية بأن الروسيا قابلة لعقد الصلح بدون استيلائها على مقاطعتى (البغدان والافلاق) رضيت بالصلح وعقدت مع حكومة الروسيا هدنة بتاريخ ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ . واتفق رجال الدولتين على اجتماع مندوبين من قبلهما بمدينة « فوكتشانى » للمناقشة فى شروط الصلح ، فاجتمع المندوبون ولبثوا مجتمعين عشرين يوما اتفقوا فيها على

سائر الشروط الا على شرط استقلال الترتار . فقد طلب مندوبو تركيا بقاء الترتار تحت سلطة الدولة العلية لان جلالة السلطان بصفته خليفة المسلمين لايمكنه التنازل عن السلطة عليهم . فرفض الروسيون هذا الطلب وبذلك انحل المؤتمر . وبعد انحلاله بزمن عرضت الروسيا على الدولة العلية عقد مؤتمر آخر فقبلت الدولة وعقد المؤتمر بمدينة (بوخارست) بعد أن عقدت هدنة ثانية جعل آخر أجلها ٢١ مارس سنة ١٧٧٣ . وقد اتفق مندوبو الروسيا وتركيا في هذا المؤتمر على مسئلة الترتار فرضيت الروسيا ببقائهم تحت سلطة جلالة السلطان . ولكنها طلبت من تركيا التنازل لها عن (كرتش) و (ويني قلعة) . فلم تقبل تركيا ذلك وانحل هذا المؤتمر أيضا ـ كما انحل المؤتمر الاول بغير نتيجة ـ في أوائل يناير سنة ١٧٧٣

وقد عادت المخابرات مرة أخرى بين الدولتين بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٧٧٣ ولكن الاتفاق كان مستحيلا لان الروسيا كانت تطالب بعزم ثابت بكرتش ويني قلعه وساسة

الدولة العلية كانوا يرفضون طلب الروسيا أشد الرفض لانهم كانوا يرون ـ والحق معهم ـ أن أخذ هذين الموقعين يجعل الاستانة فى خطر مستمر من جهة الروسيا ولذلك أقفل باب المخابرات وعادت الحرب بين الدولتين. فأمرت القيصرة (روما نتسوف) جنرال الجيش الروسى بأن يسير وراء الدانوب ويحمل علي العثمانيين فسار بأمرها الجيش الروسى يوم ١٣ يونيو سنة ١٧٧٣ وحمل على (سيليستريا) (وهى مدينة ببلاد البلغار) ولكن الجيش العثماني انتصر عليه انتصاراً عظيما وقطع عليه خط الرجعة حتى فقد الجيش الروسى معظم رجاله. فقام عندئذ الجنرال فيسمان الروسى بعمل جملة مناورات اضطرت الاتراك للرجوع الى الوراء. وقد مات فى هذه المناورات الجنرال فيسمان نفسه ولكنه أعاد للجيش الروسى بعض قوته

وقد رأت الروسيا عندئذ ان مصلحتها تقضى عليها بعقد الصلح مع الدولة العلية خصوصاً وان جيوشها انهزمت هزيمة شديدة بالقرب من (وارنا) وان أهل القرم أظهروا ميلهم للانضمام مع جلالة السلطان ضد الروسيا. فضلا عن أن ثورة

أهلية قامت فى الروسيا تحت قيادة رجل اسمه (بوجاتشيف) كانت تهدد القيصرة وملكها . فلذلك طلبت الروسيا من النمسا التوسط بينها وبين الدولة العلية فى أمر الصلح مقابل جزء تعطاه من أملاك تركيا نفسها

وفى ذلك الحين توفى المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) وتولى بعده السلطان (عبد الحميد الأول) فأمر باستمرار الحرب ولكنها عادت بخسائر جمة علي الدولة لان الجيش كان غير مستعد للقتال بعد الحروب الطويلة التى قام بها . فاضطر الصدر الاعظم الى عرض الصلح على الجنرال (رومانتسوف) . وتم الاتفاق بينهما فى ١٠ يوليو سنة ١٧٧٤ وأمضيا بعد ذلك فى ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ على عهدة الصلح بمدينة (كوتشك قاينارجه) . وهى أشهر عهدة أمضت عليها الدولة العلية والحجر الاول للمسئلة الشرقية وعنوان النزاع بين المسيحية والاسلام وأصل الحروب الطويلة التى وجهت ضد الدولة فى القرن التاسع عشر والازمات الشداد التى وقعت فيها

وشروط هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتنازل للروسيا عن الكاباردا وتضع مقاطعات الدانوب تحت حمايتها وتعلن استقلال بلاد القرم تحت ضمانتها وتتنازل لها عن (أزوف) (وكرتش) و (ينى قلعـة) وتعطيها حق الملاحة فى البحر الاسود وشبه حماية معنوية على رعايا الدولة العلية المسيحيين عموماً والارثوذكسيين منهم خصوصاً

وهذا الشرط الاخير كان ولا يزال آفة الدولة العلية فى علاقاتها مع دول أوروبا فكلها تتداخل فى شؤون الدولة باسم المسيحية واذا قامت الحرب بينها وبين احدى الدول كانت العلة المسيحية وحقوقها. وان سياسة الروسيا مع الدولة العلية في القرن الثامن عشر كانت كسياستها مع مملكة بولونيا التعسة تخلق لنفسها حزباً فى قلب المملكة يخلق لها الاضطرابات والمشاكل عند الحاجة لتتداخل فى شؤون المملكة الداخلية باسم هـذا الحزب وبحجة نصرته. ولكن هـذه السياسة التى أفلحت فى بولونيا تماماً بفضل النمسا والبروسيا لم تفلح في تركيا تماماً كما كانت تؤمله الروسيا لما عند العثمانيين من الشهامة الحقيقية

ولما لجيشهم من القوة الهائلة ولما بين الدول الاوروبية من الشقاق والاختلاف بشأن أمور تركيا ومسائل الشرق

أما النمسا فقد انتهزت فرصة اشتغال الروسيا وتركيا بأمر الصلح ووضعت يدها على جزء مهم من البغدان وعرضت على الروسيا مقابل ذلك مشروعا يتضمن تحالفها معها ضد الدولة العلية !

ولم توقع الحكومة العثمانية نهائياً على معاهدة (قاينارجه) الا يوم ٢٤ يناير سنة ١٧٧٥

ولم يمض على هذه المعاهدة زمن يسير حتى أحدثت الروسيا فى بلاد القرم الاضطرابات بفضل الدخلاء العاملين بأمرها وأرسلت جيشاً جرارا الى داخل البلاد بدعوى تسكين الاضطرابات . ولكن غرضها الحقيقي كان الاستيلاء على بلاد القرم وبالفعل استولت عليها وظهر للعيان أن الروسيا انما كانت تعمل لاخراج هذه البلاد من حوزة الدولة العلية وان بذل جهدها فى سبيل اعلان استقلالها لم يكن الا ليسهل لها الاستيلاء عليها . وقد احتجت الدولة العلية ضد هذا

العمل المخالف لشروط معاهدة (قاينارجه) وأرادت اعلان الحرب ضد الروسيا ولكنها رجعت عن عزمها بنصائح فرنسا التى كانت تعلم ان الروسيا والنمسا متفقتان على تقويض أركان السلطنة العثمانية

ولكن الروسيا كانت تبذل أقصى الجهد للوصول الى اعلان الحرب بينها وبين تركيا فأرسلت مبعوثين من عندها لتهييج بلاد اليونان والافلاق والبغدان ضد السلطنة السنية ونشرت الجواسيس فى انحاء الدولة العلية ليحدثوا فيها القلاقل ويخلقوا الاضطرابات فلما رأت الدولة العلية ذلك وأن لا مناص لها من الحرب طلبت من سفير الروسيا بالاستانة أن يخابر دولته فى تسليم حاكم الافلاق الذى عصى أمر الدولة والتجأ الى الروسيا وفى عزل قناصل الروسيا المهيجين للاهالي فى بلاد الدولة وفى منح الدولة العليـة حق تفتيش مراكب الروسيا التجارية التى تمر من بوغاز الاستانة

فرفضت الروسيا هـذه الطلبات وكان ذلك الرفض اعلانا للحرب بينها وبين الدولة العلية

ولما كانت النمسا متفقة مع الروسيا على مساعدتها ضد تركيا أرسل جوزيف الثانى امبراطور النمسا جيشاً عظيما لمحاربة الاتراك والاستيلاء على مدينة (بلغراد) فانهزم جيشه أمام العثمانيين واضطر للعودة الى مدينة (تمسوار) ببلاد المجر حيث اقتفى أثره الجيش التركى وهزمه هزيمة عظيمة

أما الجيش الروسى فقد استولى فى هذه الاثناء على مدينة « أوزى » وبينما الجيش العثمانى يقاوم جيش الروسيا والنمسا اذ مات المرحوم السلطان (عبد الحميد الاول)فى ٧ ابريل سنة ١٧٨٩ وتولى بعده السلطان الغازى (سليم خان الثالث) حيث أمور الدولة مرتبكة والحرب قائمة على قدم وساق . وقد انتهز الروسيون فرصة انتقال الملك فى الدولة العلية واتحدوا مع النمساويين في الحركات العسكرية وتولى القيادة العامة قائد واحد ، فانتصر الجيشان على جيش الدولة واستولى الروسيون على مدينة « بندر » واحتلوا جزأ عظيما من بلاد الافلاق والبغدان وبسرابيا ودخل النمساويون بلاد

الصرب ومدينة بلغراد

وقد مات حين ذاك جوزيف الثانى امبراطور النمسا وعقبه على سرير المملكة النمساوية ليوبولد الثاني فسعى فى عقد الصلح مع الدولة العلية تخوفا من قيام النمساويين بالثورة ضده تقليدا للامة الفرنسوية التى كانت ثائرة وقتئذ ثورتها الاولى الكبيرة ضد لويس السادس عشر . فعقدت عهدة بين النمسا والدولة العلية فى أغسطس سنة ١٧٩١ بمدينة « زشتوى » وقد ردت النمسا الى الدولة العلية بمقتضى هذه المعاهدة بلاد الصرب وبلغراد التى كانت في قبضتها ولم تخسر الدولة العلية من هذه الحرب مع النمسا خسارة تذكر

أما الروسيا فقد استمرت بمفردها على محاربة الدولة العلية حتى توسطت بينهما البروسيا وانكلترا وهولاندة فأمضيت بينهما معاهدة بمدينة « ياش » أخذت الروسيا بمقتضاها بلاد القرم نهائيا وبسارابيا والبلاد الواقعة بين نهرى بوج دينستر ومدينة « أوتشاكوف »

وبذلك انتهت هـذه الأزمة الشديدة التى جاءت في أواخر القرن الثامن عشر وكانت عنوانا لأزمات شـداد توالت بعد بعضها في القرن التاسع عشر . نأتى عليها الواحدة بعد الاخرى

المسئلة الشرقية

في

القرن التاسع عشر

ليس غرضنا أن نأتي في هذا الفصل على تاريخ الدولة العلية في القرن الحاضر بل على أشهر وأهم أزمات المسئلة الشرقية فلذلك نهمل الحوادث الصغار ونفصل الازمات الشداد أزمة بعد أخرى

الازمة الاولى

استقلال اليونان

كل من قرأ تاريخ الدولة العلية يعلم أن المرحوم السلطان الغازي (محمد الثاني) لما فتح الاستانة أمن الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم على أموالهم وأرواحهم وديانانهم وتقاليدهم حيث اتبع أوامر الشرع الشريف ونشر راية الاعتدال الديني . فنال اليونانيون من هذه المعاملة الحسنة مالم يكن يخطر لهم على بال من السعادة والرفاهية ورأوا من سلطان

آل عثمان اكراماً لهم واحتراماً لدينهم ولرجال دينهم حتى انه لما انتخب بطريرقهم بعد فتح الاستانة قال له المرحوم السلطان محمد الثانى : « كن بطريرقا لليونان والله يحميك : وفى كل الاحوال والظروف اعتمد على مساعدتي وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل »

وقد كانت هذه المعاملة الاسلامية فريدة فى نوعها غريبة فى بابها فان الكاثوليكيين أنفسهم كانوا يعاملون اليونانيين بالاحتقار والازدراء . ويستحيل على المؤرخين أن ينكروا على محمدالفاتح وعلى المسلمين هذه الصفات العالية والمكارم الجليلة التى ظهرت فى الاستانة بعد الفتح كشمس تبدد الظلمات وآية من أكبر آيات الدين الاسلامى الباهر

وقد أدى هذا الاعتدال الدينى الى نمو التجارة فى أيدى اليونانيين فصاروا بفضل الدولة العلية وبفضل تساهلها الدينى أغنياء أثرياء عائشين فى أتم الراحة والهناء ولكنهم لم يحفظوا للدولة العلية عهدا ولم يرعوا لها نعمة بل أنكروا المعروف والجميل وصاروا فى الصف الاول من أرباب الدسائس العاملين

ضد السلطنة العثمانية وأضر الآلات لاعداء الدولة فى قلبها

وقد بلغت ثقة الدولة العليـة برعاياها على اختـلاف دياناتهم وأجناسهم وحسن نواياها نحو المسيحيين المحكومين بها أنها عينت لمقاطعات صربيا والافلاق والبغـدان حكاما من اليونانيين مؤملة أنهم يخدمونها بصدق وأمانة كما اكرمتهم وأكرمت أمتهم فكانوا الاعداء الألداء فى ثياب الاصدقاء الامناء وعوضاً عن أن يقوموا بالواجب عليهم نحو دولة رفعتهم الى أسمى المناصب استعملوا سلطتهم ونفوذهم فى تهييج أهالى هـذه البلاد ضد الدولة العليـة والقاء بذور الثورات والاضطرابات فيها

*
* *

وقد أسس المهيجون من اليونانيين جمعية فى بلاد الروسيا اسمها (هيترى) — أى الجمعية اليونانية الوطنية — غرضها استقلال اليونان والانتقام من الدين الاسلامى . وقد ساعد القيصر هـذه الجمعية كل المساعدة فأخـذت تنمو وتنتشر وأخذ الكثير من أعضائها يقتلون ويسلبون باسمها وبدعوى

المطالبة باستقلال اليونان . وكان (اسكندر ايبسيلانتى) و (ديمتريوس ايبسيلانتى) أهم أعضاء الهيترى فى خدمة القيصر الشخصية . وكان (كابوديستريا) زعيم الثورة اليونانية أحد وزراء القيصر اسكندر الاول

وكان ابتداء الثورة اليونانية دخول (ايبسيلانتى) فى المقاطعات اليونانية فى عام ١٨٢١ محرضا على الثورة بلاد اليونان كلها . وقد اعتبر هذا العمل بايعاز من الروسيا . وكان من البديهيات أن (ايبسيلانتى) الذى كان ضابطا بمعية القيصر عمل ماعمل بأمر القيصر أو برضاه . وقد أتى (ايبسيلانتى) نفسه بما يدل على ذلك حيث كتب فى دعوته للثورة . واذا اعتدى أحد من الاتراك على أراضى بلادكم فلا تخشوا له بأساً فان دولة عظيمة مستعدة لمعاقبة المعتدين عليكم »

ولم يكن بين دول أوروبا دولة تعارض هذه الحركة اليونانية مثل دولة النمسا فانها كانت تحيط الباب العالى علما بكل دسائس ثورويى اليونان وبكل تشجيعات الروسيا لهم

وأعمالها السرية

أما انكلترا فكانت خطتها فى بادىء الامر التظاهر بمساعدة تركيا ضد الروسيا ومقاومة الحركة اليونانية أشد المقاومة . ولكن الدولة العلية أظهرت شكها فى نوايا بريطانيا لعلمها بطمعها وجشعها وكراهتها الحقيقية للاسلام . خصوصاً وان سوء قصدها كان قد ظهر باستيلائها على الجزائر اليونانية . وقد جاءت الايام مبرهنة بأسطع برهان على ان الدولة العلية كانت مصيبة في سوء ظنها بالانكليز فقد انقلبت انكلترا فى مسئلة الثورة اليونانية ضد الدولة العلية كل الانقلاب وغيرت كراهتها الاولى لليونانيين بالمحبة العلنية والمساعدة الظاهرة

ولما علمت النمسا بأعمال الروسيا ومساعداتها لليونانيين بذل وزيرها الاول (مترنيخ) الشهير أقصى جهده لدى القيصر اسكندر الاول ليعيد السكون الى بلاد اليونان ويأمر الثورويين بعدم القيام فى وجه حكومة المرحوم السلطان محمود والامتثال والخضوع لاوامر الدولة .وقد أظهر مترنيخ

للقيصر اسكندر الاول مقدار الخطر الذى ينتج عن اشتعال نار الفتنة والثورة فى بلاد اليونان مبيناً له ان تعضيده لثورة اليونان يكون داعيا لانتشار الثورة فى كل أنحاء أوروبا ضد الملوك . فأثرت هذه الاقوال على القيصر اسكندر الاول وأعلن رسمياً غضبه وسخطه على ايسيلانتى ووجه ملامه لليونانيين ناصحاً لهم بالسكينة والانصياع لحكم الدولةالعلية

ولكن هذه التصريحات العلنية لم تكن الا ترضية وقتية للنمسا التى كانت مضطربة الاحوال لاشتغالها بقمع الثورة الايطاليةالتى قامت وقتئذ فى وجهها . ولم يرجع القيصر اسكندر الاول عن عزمه بل صار يتظاهر علناً بمحبة السلم والميل الى الانصاف مع الدولةالعلية وهو يكمن لها فى الباطن السوء والضرر منتظراً الفرص المناسبة

أما ايسيلانتى فقد هزمته الدولة هو ورجاله شر هزيمة واضطر الى الهروب في ترانسلفانيا حيث قبضت عليه النمسا وسجنته لغاية عام ١٨٢٧ . وقد أسس ثوار اليونان بالرغم عن سقوط ايسيلانتى فى قبضة النمسا مجالس أهلية ومجلساعموميا

لهم كبرلمـان يونانى

***

وما انتشر فى أوروبا خبر قيام اليونانيين بالثورة ضد الدولة العلية حتى تظاهر الـكثيرون من الـكتاب والشعراء بتعضيدهم والانتصار لثورتهم ضد المسلمين . وأول من جاهر بالانتصار لليونانيين وبالنداء باستقلالهم هو اللورد (بيرون) الشاعر الانكليزى . فقد هاجر من بلاده وعاش غريباً ينشد مجد اليونان السالف وينادى أوروبا بمساعـدة أبناء اليونان ونصرتهـم . وقد أثرت كتاباته وأشـعاره فى أغلب بلاد أوروبا وجرى على سنته الكثير من شعراء فرنسا وكتابهـا وفى مقدمتهم (فيكتور هوجو) الشاعر الشهير . وأسست اللجان المختلفة فى فرنسا وانكلترا لمساعدة اليونانيين بالمـال والرجال . وسافر المتطوعون من كل بلد في أوروبا ومن كل جانب .

وقد قامت الحركة كلها فى بلاد أوروبا باسم معارف اليونان وأنوارها القديمة وباسم الدين المسيحي . فكنت تجد

الكتاب الذين لادين لهم ولا عقيدة في أفئدتهم يدافعون عن اليونانيين باسم الدين المسيحى ويوجهون الى الاسلام أقبح السباب وأدنى الشتائم

وكان أنصار اليونانيين يحسبونهم كآبائهم الاولين متى نالوا حريتهم واستقلالهم بزغت شموس المعارف والآداب والفلسفة من بلادهم وعادت أتينا مشرقاً لانوار الحكمة والعرفان . والذين كانوا ينتصرون لليونانيين مؤملين هذا الامل كانوا اما متعصبين فى الدين ضد المسلمين يحملهم بغضهم على اعتقاد فاسد كهذا أو كانوا سليمى النية . فلقد برهن اليونانيون بعد استقلالهم على ان بينهم وبين اليونانيين القدماء بونا بعيدا وفرقاً عظيما

ولا ريب ان أولئك الذين كانوا ينتظرون شروق أنوار الحكمة والفلسفة العالية من أبناء أتينا الحاليين تحسروا طويلا واندهشوا منتهى الاندهاش من خطئهم فى آمالهم هذا الخطأ الكبير واعتدائهم بغير حق على السلطنة السنية التى كانوا يقولون عنها انها المانعة لترقى اليونان والواقفة فى

سبيل شروق شموس الحكمة والعرفان من أتينا »

ومن الغريب ان أغلب أنصار اليونانيين ان لم نقل كلهم كانوا يجهلون تمام الجهل بلاد اليونان وأهلها . على أنهم لو كانوا أرسلوا بعض الوفود لزيارة هذه البلاد والوقوف على حقيقتها وحقيقة أهلها لكانو أدركوا أنهم مخطئون خطأ كبيراً وان آمالهم البعيدة حلم لا حقيقة له ويستحيل أن يكون له وجود

وقد أنصف بعض الكتاب الاوروبيين الدولة العلية وأظهروا للعالم المتمدن الحقيقة التى لامراء فيها وفضحوا أعمال اليونانيين حتى خجل أنصارهم . وفى مقدمة هؤلاء الكتاب الفضلاء (الفريدلميتر) الفرنساوى فقد وضع كتابا على استقلال اليونان كشف فيه الغطاء عن أمور عديدة تشرف الدولة العلية وترفع من مقامها أمام التاريخ وتشهر أكاذيب أنصار اليونان الجمة

ومن المستندات الرسمية العديدة التى أوردها حضرة المؤلف السالف الذكر عريضة رفعها جماعة من الفرنسويين

كانوا سافروا الى بلاد اليونان لنصرة الثائرين فيها الى أميرال البحرية الفرنساوية بالبحر الابيض المتوسط يسألونه فيها أن يردهم الى فرنسا . وهذه العريضه تترجم للقاريء عن الحقيقه وعن أكاذيب أنصار اليونان وقد جاء فيها : « وقد وصفوا لنا اليونانيين قبل سفرنا من فرنسا بشجعان وأبطال يفوقون آباءهم الاولين شهامة ومجداً . فما وجدنا هنا الا رجالا يحملهم حب المال على حب الجرائم وأناسا لا يزالون في ظلمات الجهالة والوحشية »

وقد كتب القومندان (بوجول) فى مذكراته عن ثورة اليونان بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٢٧ ما تعريبه :

وقد جئت الشرق وأنا من أكبر أنصار هذه الامة (اليونانية) ولم يتغير اعتقادى فيها واحساسى نحوها الا بالتجربة . فهى مجردة عن الوطنية والشجاعة والاتحاد وهم كل رئيس من رؤسائها أن يكون غنياً وقد بلغت الفوضى حدها فى بلاد اليونان . وأغلب أعضاء حكومتها — وكلهم محتقرون أشد الاحتقار — معروفون من الجميع بانهم

المسلحون للصوص البحارَ . ولولا تداخـل الدول لخضع اليونانيون جميعا هذا العام . واعترافا بالجميل نحو أمم أوروبا لا يزال اللصوص اليونانيون يعتدون على تجارة هذه الامم نفسها ! »

وكتب الامير (رينى) أميرال الاساطيل الفرنساوية بالبحر الابيض المتوسط من أزمير بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٢٦ ماتعريبه :

لقد تغش أوروبا بشأن كل مايختص بثورة اليونانيين ضد تركيا . فقد تنقص المستندات الرسمية وليس من عادة الاتراك ان ينشروها . والتقارير اليونانية ليست الا مراسلات خصوصية تجسم فيها الامور وتمر على (زانت) و (كورفو) والنمسا قبل أن تلونها الجرائد فى لوندره وباريس بالالوان الساطعة البهية . ولكنها فى أغلب الاحيان ألوان كاذبة . ولا شك ان هذا هو اللازم للتأثير على أفكار العالم . ولكن هذا لا يكفى لانارة أفكار الذين يقودون زمام الامور

*
* *

وقد انتهز اليونانيون فرصة قيام (على باشا) والى يانيه ضد الدولة العلية لاحداث الاضطرابات والهيجان فى كل انحاء بلاد اليونان. فقد طغى هذا الباشا وعصى الدولة العلية وأراد الاستقلال والخروج من تحت السلطة الشرعية فصار يعمل لاستمالة اليونانيين اليه ضد الدولة العثمانية. ولكن أطماعه الشديدة وأخلاقه الشرسة أكثرت من أعدائه بالرغم عن تملقه لليونانيين ونفاقه

وسبب عصيانه على الدولة ان اسماعيل باشا اكبر أصدقائه وأول المقربين اليه وقع بينه وبينه خلاف شديد أدى الى هروب اسماعيل باشا الى الاستانة حيث تعين فيها بالحرس السلطانى وأبلغ رجال الدولة أعمال هذا الرجل وسوء نواياه. فقررت الدولة عزل ابنه الذى كان حاكما لتساليا. فاغتاظ على باشا من ذلك وأرسل أحد أتباعه من الالبانيين الى الاستانة لقتل اسماعيل باشا. وبالفعل قتله هذا الالبانى عند ذهابه للصلاة

وقد علمت الدولة وقتئـذ بان الانكليز يشجعون على باشا على رفع لواء العصيان ضد الدولة العلية ووقفت على كل مراسلاته مع اليونانيـين فامتلأت غيظا منه واعتـبر خائنا للدولة والملة وأصدر شيخ الاسلام منشورا للمسلمين باعتباره خارجا على الدولة كافراً بنعمتها .

وقـد أمرته الدولة بالحضور الى الاسـتانة فى ظرف أربعـين يوما فخالف أمرها وصمم على معاداتها والقيام فى وجهها . وصار يجتهد فى استمالة المسلمين اليه فلما لم يفلح لانهم جميعا اعتـبروه خائنا وخارجاً من دين الاسـلام مال الى اليونانيين وصار يتقرب منهم ويستنصر بهم ضد الدولة ويوزع الاموال عليهم ولما أراد الانتفاع بهـذا الود سألهم بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٨٢٠ تكوين جيش ينصره ضد الدولة. ولكن اليونانيين الذين كانوا يعرفون أخـذ الاموال وسماع المدائح وبدائع الاقوال من هذا الطاغية كانوا يعرفون من أنفسهم انهم عاجزون عن تقديم الاسلحة والرجال فلم يجيبوا للعاصى طلباً ولم يلبوا له نداء بل بقى يناديهم وهم صامتون حتى اقترب

منه الجيش العثمانى . فلم يجد له مخرجاً من ورطته الا حرق مدينة « يانينا » والالتجاء الى جزيرة كان بنى فيها قلعة حصينة جمع فيها كل ذخائره وأمواله

وقد كان يقود الجيش العثماني ضده خورشيد باشا حاكم الموره فوصل بمهارته وحكمته الى دخول القلعة التى كان ملتجئاً اليها هذا المتمرد ولما لم يجد على باشا لنفسه سبيلا غير التسليم سلم نفسه لخورشيد باشا الذى أنفذ أمر الدولة بقتله عقابا له على تمرده وعصيانه . وفى أوائل فبراير سنة ١٨٢٢ أرسل برأسه الى الاستانة لتعلق فى مكان عام انذارا لكل عدو للدولة ولكل خائن

*
* *

وقد انتهز اليونانيون فرصة عصيان على باشا والى يانينا وأخذوا يسلبون وينهبون فى كل انحاء اليونان وجعلوا المورة منبع الثورات والاضطرابات لخلوها من العدد الكافى من الجنود العثمانية . وفى ٥ مارس عام ١٨٢١ دخل من يدعى (كارافيا) وهو يونانى تعلم الجندية فى الروسيا فى ميناء

(جالاتز) — وهو ميناء من رومانيا على الدانوب — وهجم على قلعتها برجاله العديدين حيث نهبوا وسلبوا وقتلوا من فى المدينة كلها وأسالوا الدماء وخربوا المنازل . وقد أشاع اليونانيون عندئذ فى كل اصقاع العالم ان ما أتوه فى هذا الميناء الصغير الذى لا يكاد يوجد به جنود يعد انتصارا كبيرا على الدولة العثمانية وعملا عظيما . وهاج كذلك أعضاء الهيترى بمدينة (ياسى) واحتالوا على حرسها وكان مكونا من خمسين رجلا فأفهموهم ان الاهالى عازمون على الثورة وقطع دابر الاتراك ولكنهم ان تجردوا من أسلحتهم وبنادقهم توطد الامن فى المدينة وعادت الامور الى السكينة والسلام فاغتر رئيس الحرس وظن ان أعضاء الهيترى صادقون فى أقوالهم فأجاب طلبهم وأمر الجنود بالتجرد من السلاح والذخائر الحربية . فقابل اليونانيون هذا العمل بأن نشروا لواء النهب والسلب فى المدينة ورفعوا راية الفتك بالمسلمين فقتلوا الكثير منهم بلا تمييز بين الرجال والنساء والاطفال . ولما جاء (ايبسيلانتى) زعيم جمعية الهيترى استحسن هذه الفظائع

والمنكرات ووافق عليها بأسم الانتقام من الاسلام والمطالبة بالحرية :

وقد كانت جمعية الهيترى تهدد الاغنياء من اليونانيين بالقتل ان لم يساعدوها بالمال — وقد اتبعت هذه الخطة نفسها جمعية ثوار الارمن مع أغنياء الطائفة الارمنية — وحصل ان (ايبسيلانتى) المذكور لما جاء مدينة (ياسى) علم بوجود يونانى عظيم الثروة اسمه (بول اندرياس) فألقى القبض عليه بدعوى انه اختلس أموالا كثيرة من أموال الهيترى فأدرك الرجل ان هذه التهمة ألقيت عليه ليقدم لايبسيلانتى شيئا من المال ففعل ذلك وكان فى فعله نجاته

وقد أحدثت هذه الفظائع التى جرت فى (ياسى) فى كل بلاد اليونان فرحا شديدا واشتاقت نفوس أهاليها للسلب والنهب وذبح المسلمين باسم الحرية والدين !

وقد يجد الانسان فى بعض الكتب المتعصر أصحابها لليونان فصولا طويلة على هذه المذابح المختلفة والجرائم العديدة ومن هذه المؤلفات أشهرها مؤلف المسيو (بوكفيل)

المسمى (محطة الشرق) فقد جاء بالرغم عن شدة تعصب المؤلف ضد المسلمين بحقائق يخجل منها كل انسان يحترم الانسانية ويحبها

ولما كانت المورة كما قدمنا منبعا للثورات والاضطرابات حاصر اليونانيون مدينة (مونبازيا) فقاوم أهلها الحصار طويلا حتى فقدوا كل الذخائر والمأكولات . وكان يقود اليونانيين وقتئذ (ديمتريوس ايبسيلانتى) فاستعمل الخداع للاستيلاء على هذه المدينة وأعلن أهلها بانه يحترم أملاكهم وأموالهم ويحترم قبل كل شىء أرواحهم اذا سلموا المدينة وانه يساعدهم على الرحيل منها اذا أرادوا ذلك . فصدق أهل هذه المدينة الشقية كلام (ايبسيلانتى) وسلموا القلعة والاسلحة فدخل اليونانيون المدينة وأول شىء قاموا به هو انهم لم يحترموا لرئيسهم قولا ولا عهدا بل هتكوا الاعراض ونهبوا الاموال وقتلوا النساء والاطفال قبل الرجال

وانه ليسهل على القارىء أن يتمثل قوماً لاسلاح بأيديهم ولا قوة تحميهم يهجم عليهم جماعة من أشرار

اليونانيين وهم متسلحون بأنواع السلاح ويتمثل مناظر المعارك الدموية التي تجرى بينهم ودفاع الموت الذى يدافع به المسلمون عن نسائهم وأطفالهم

وقد كتب الكونتر أميرال الفرنساوى (هالجان) فى عام ١٨٢١ تقريرا عن دخول اليونانيين الى (مونبازيا) جاء فيه

« وقد وجد فى قلعة مونمبازيا ثلاثمائة يونانى لم يكتف الاتراك أيام الحصار بمعاملتهم بالحسنى بل عاملوهم كاخوتهم الحقيقيين أثناء المجاعة واحترموا كنائسهم كل الاحترام . ولكن يونانيو المورة لم يعاملوا الاتراك بنفس هذه المعاملة عند ماأخذوا المدينة . بل أتوا بأشنع القبائح وأفظعها فى مساجد الاتراك

« أما المسجونون فقد أرسلوا بغير زاد الى « كاسوميس » ووجدت علي الارض العائلات الاسلامية التعسة تنازع نزاع الموت من الجوع والعطش وهى نائمة على الاحجار . وحوالى الجزيرة وجدت جثث القتلي . وبالرغم عن ذلك كله فقد أراد

اليونانيون ضرب هاته العائلات بالرصاص . ولم تنج من أيديهم الا بفضل المسيو « دى بو نفور » الذى هدداليونانيين وأخذ كل الاتراك الموجودين بهذه الجهة فى سفينة مخاطبا ضباط اليونانيين بأن ماعملوه هم ورجالهم لايأتى به الا لصوص البحار ! »

وهذا التقرير وحده يشهد بأبدع بيان على أن أنصار اليونان فى أوروبا كذبوا على العالم كله الاكاذيب الشنيعة وان الجرائم والفظائع الدموية التى جرت فى بلاد اليونان لم يأتها الا اليونانيون ضد المسلمين

وان الفيلسوف ليقف مندهشا امام هذه الدنايا والجرائم ويعجب كيف ان شعراء أوروبا وكتابها كانوا ينتصرون لقوم لاتتغذى أرواحهم الا بذبح الابرياء ولا تستريح نفوسهم الا الى الجرائم . فهل كان ينتظر شعراء أوروبا وكتابها من هؤلاء القوم الذين كتب عنهم ضباط أوروبا نفسها وبعض من أفاضل كتابها ماقرأه القارىء أن يعيدوا لربوع اليونان مجدها السالف وأن يردوا للوجود أثينا

مشرقا لانوار الحكمة والعرفان ؟؟

وقد استولى ثوار اليونان في ١٩ أغسطس سنة ١٨٢١ على مدينة (ناورين) الشهيرة وأتوا فيها من الفظائع مالم تره عين ولم تسمع به أذن

وكتب عن هذه الفظائع القس الارثوذكسى (فرانتزيس) ماترجمته

وكانت البنات التى تريد الهروب من أيدى القتلة تجرى نحو شاطىء البحر وعلى أجسادها أثر الرصاص . ومع ذلك كانت ترمى وتقتل . وكانت النساء يحمل اكثرهن الاطفال على الذراع فيمزق المعتدون ملابسهن . والتى كانت تلقى بنفسها الى البحر لتستر عورتها كانت ترمى كذلك بالرصاص وتقتل . وقد هشمت رؤوس بعض الاطفال الذين اختطفوا من أمهاتهم . وألقى اليونانيون فى عميق البحار بنات وأطفالا لم يتجاوز أغلبهم الرابعة أو الخامسة من العمر كأنهم قطع من لحوم الكلاب »

وفى ٥ اكتوبر نفسها استولى ثوار اليونان بعد حصار

طويل على مـدينة (تريبوليتزا) . وانه يسـتحيل على كاتب شرقى أو غربى مهما كانت بلاغتـه وقوة انشائه وعظـيم تأثيره ان يصف المـذابح الهائلة البهيميـة ـ أو التى لااسم لها ـ التي أتاهااليونانيون . بل يكفى القارىء ان يعلم اناليونانيـين ذبحوا في(تريبوليتزا) ثمانية آلاف من الرجال وفوق ذلك من النساء وان المـذابح استمرت ثلاثة أيام كاملات حتى فسد الجو وتغير الهواء وانتشر من بعدها الوباء حيث عم كل بلاد اليونان وجاء من المنتقم الجبار منتقما للأبرياء الشهداء من الظالمين المجرمين السافكين للدماء

وقد كتب أغلب كتاب أوروبا الا من أعماهم الغرض والتعصب على هذه الفظائع ووصفوها كما تستحق فقال عنها الـكاتبالانكليزى (فنلى) المشهور ـ وكان قدشهد الحادثة بعينه ـ في كتابه (تاريخ اليونان) :

« ان منظر هذه المذابح لايعادله منظر فى تاريخ البشر لافى فظاعته ولا فى طول مدته »

وقد أحدثت هذه الفظائع فى الاستانة تأثيراً شديداً

جـداً وهاج الاهالى طالبين عقاب اليونانيين الذين لهم يد في جمعية الهيترى . فقام عندئذ شيخ الاسلام ونصح المسلمين بالسكينة والاعتدال وعدم الاعتداء على الابرياء انتقاما من الآفكين (وسيرى القارىء ان اليونانيين كافأوا شيخ الاسلام هـذا بأن قتلوه هو وعائلته بعد ندائه فى صالح الابرياء منهم)

فلما علم المرحوم (السلطان محمود) بما عمله اليونانيون بدسائس جمعية الهيترى أمر بتفتيش منازل بعض اليونانيين المشتبه فيهم وعمل تحقيق تام على كل الذين اشتبه فى أمرهم . فأبان التحقيق ادانة الكثيرين من اليونانيين ومنهم (موروزى) الذى كان للسلطان به ثقة عظمى فاستعملها فى تبليغ أعضاء الهيترى أسرار السياسة العثمانية . والبطريرق (جريجوريوس) فأمر السلطان باعدام الجميع عبرة لغيرهم من المفسدين والثوار

أما فى أتينا فقد اتبع اليونانيون خطتهم الدموية بنفسها فأسالوا الدماء بكثرة عظيمة ولم يرحموا أحدا من المسلمين

وقد انتشر بعض أعضاء الهيترى فى أزمير وجعلوا غايتهم جمع الاموال بأدنى الوسائل وأسفل الطرق والقاء الخوف والرعب في نفوس اليونانيين المقيمين بأزمير. فأشاعوا الاشاعات المختلفة عن نوايا الدولة العلية نحو اليونانيين حتى اضطرت العائلات اليونانية كلها الى المهاجرة من أزمير فاستفاد أعضاء الهيترى من هذه المهاجرة انهم جمعوا أموالا كثيرة وأوهموا أوروبا بأن سبب هذه المهاجرة ظلم الدولة العلية وسوء معاملتها لليونانيين ! ! !

ومما يؤكد ذلك ان أحد رجال فرنسا بعث من أزمير بكتاب الى وزير البحرية الفرنساوية فى ذلك الحين جاء فيه:

« وقد أشاع فى كل أنحاء المدينة رجال يعملون على جمع الاموال بكل الوسائط الدنيئة الاشاعات المزعجة للخواطر بشأن نوايا الاتراك . فمتى علم الاهالى بأن أحد بواخرنا تقصد ميناء الارخبيل تأتينى العائلات اليونانية وتسألنى من كل جانب السفر على هذه البواخر . وقد يطول بي الامر اذا أردت أن أشرح لسعادتكم كل الوسائل التى يمليها الشره

وسوء القصد على رجال يعملون لجمع الاموال بدعوى الانسانية وانه يجب ان يكون الانسان هنا ليعتقد ذلك »

وقد استعملت هذه الوسائل فى جهات مختلفة وأهاج ثوار اليونان كل المسيحيين فى البلاد اليونانية اما بدعوى الدين واما بالتهديدات والانذارات

أما فى الارخبيل فقد جعل اليونانيون همهم الاكبر السرقة واللصوصية والقتل والسلب والنهب . وقد كانت الدولةالعلية استخدمت الكثيرين منأبناء اليونان في بحريتها ثقة منها بهم كثقتها بكل رعاياها على اختلاف دياناتهم وأجناسهم . فلما قامت الثورة اليونانية ترك البحرية العثمانية كل اليونانيين الموظفين بها فعاق ذلك الدولة العلية عن قمع الثورة فى الارخبيل كما قمعتها بعد فى بلاد اليونان نفسها

وقد قدمنا فيما سبق ان شيخ الاسلام أصدر منشورا بالاستانة نصح فيه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على الابرياء من اليونانيين وقلنا ان مكافأته من هؤلاء كانت القتل . وذلك ان المرحوم السلطان (محمود) عزله من منصبه

لهياج الشعب ضده . فغادر الاستانة على باخرة عثمانية قاصدا بلاد الحجاز . ولما وصلت الباخرة الارخبيل هجمت عليها بعض السفن اليونانية وضايقتها من كل جانب حتى أسرتها وأخذت مافيها من الاموال والخيرات . ولما رأى البحارة اليونانيون ان شيخ الاسلام وعائلته بين ركاب السفينة قبضوا على بناته وذبحوهن أمامه وألقوا بهن الى البحر ثم قتلوا كل من بالسفينة على مشهد منه حتى صار وحده أمامهم فقتلوه شر قتلة جزاء له على نصحه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على الابرياء من بنى اليونان ::!

*
* *

وقد أحدثت مذابح اليونان تأثيراً شديداً فى الروسيا فقام القسس ورجال الدين يحرضون الاهالى ورجال الحكومة على أن يطلبوا من القيصر الانتقام من الهلال للصليب وطرد الاتراك المسلمين من بلاد اليونان المسيحية . ومع ان اليونانيين هم الذين اعتدوا على المسلمين وأتوا الفظائع الجسام فان أنصار اليونان فى أوروبا ملأوا الارض بكاء وعويلا واتهموا الدولة

العليــة بأنها تذبح الابرياء وتسفك الدماء . فأرسل عنــدئذ القيصر (اسكندر) انذارا للدولةالعلية على يد سفيره بالاستانة المسيو (ستروجونوف) جاء فيه

« ان الباب العالى يجـبر المسيحية على أن تتساءل اذا كانت تستطيع أن تنظر بغير حراك الى ابادة أمــة مسيحية وترضى بهذه الاهانات الموجهــة للدين المسيحى » . وطلب القيصر من الدولة العليــة فى مذكرته هـذه طلبات ملؤها التهديد والوعيد

وفى الوقت نفسه أرسل الى الدول الاوروبية مذكرة يفسر فيها لها خطته وسلوكه ويسألها عن الخطــة التى تنوى كل واحدة منها اتباعها اذا قامت الحرب بين الروسيا والدولة العليــة . وعلى أي صورة ترضى كل منها تقسيم الدولة العلية .....

فكان القيصر اسكندرالاول يريدبثورة اليونان تقسيم الدولة العلية وبلوغ أمانيه من الاستانة والبوسفور

أما الدولة العلية فقــد أجابت علي انذار الروسيا بغاية

الشرف والشهامة غير خائفة تهديدها ووعيدها . فترك عندئذ سفير الروسيا الاستانة وأعلن فى ٨ أغسطس سنة ١٨٢١ انقطاع العلائق السياسية بين الدولتين فلما رأت النمسا ذلك خافت النتائج الهائلة والعواقب الوخيمة التى تنتج عن الحرب بين تركيا والروسيا واتفقت مع انكلترا على مقاومة الروسيا ومعارضة أغراضها واتحدت معها على منع الحرب بين الدولة العلية وبينها بكل الوسائل فكتبت وزارة لوندره كما كتبت وزارة فيينا الى القيصر تعارض مشروعاته وتعده بالتوسط مع النمسا لدى الباب العالى لنوال ترضية للروسيا . فقبل القيصر توسط النمسا وانكلترا وأطاع نصائحهما . وبالفعل توصل ساسة النمسا وانكلترا الى منع الحرب بين الروسيا وتركيا

ولا يحسبن القارىء ان توسط انكلترا مع النمسا لمنع الحرب بين الدولة العلية والروسيا كانت تقصد به انكلترا خدمة تركيا أو مساعدتها . بل الحقيقة ان الانكليز لما رأوا الروسيا تسعى لجعل بلاد اليونان تحت حمايتها المعنوية

واستخدامها فى سبيل سياستها قاموا فى وجهها وردوها عن محاربة تركيا ثم تظاهروا بعدئذ بنصرة اليونان أكثر منها حتى حول اليونانيون أنظارهم الى بريطانيا وصار للانكليز النفوذ الاول فى اليونان . حيث شكلوا في لوندره الجمعيات العديدة لمساعدة اليونان ونصرتهم ولم يتأخر ماليو انكلترا عن تسليف مبالغ طائلة لحكومة اليونان الثورية . فصارت انكلترا بذلك أول عدوة للدولة العلية وأول دولة منتصرة لليونان .

وفى أوائل عام ١٨٢٣ صار حاكم الجزائر اليونانية الانكليزى الذى كان يعامل قبل هذا الحين ثوار اليونان بغاية القساوة والشدة يحميهم ويساعدهم ويتركهم يتآمرون فى جزائره ضد الدولة العلية .

ولما رأت الدولة ان الاضطرابات قد كثرت فى بلاد اليونان وان الثورة قد عمت كل انحائها طلبت من المرحوم (محمد علي باشا) عزيز مصر ان يمدها بالرجال فأجاب الطلب وأرسل جيشا جراراً على أساطيل مصر تحت قيادة ابنه

المرحوم (ابراهيم باشا)

وفى أثناء تأهب المصريين للدخول في بلاد اليونان كانت الدول الاوروبية تتناقش فى سان بطرسبورغ في أمر المسئلة اليونانية ولكن انكلترا كانت تعمل على عدم نجاح المؤتمر حتى يكون لها حرية تامة فى العمل . وغاية ماأقر عليه هذا المؤتمر هو ان الدول الاوروبية تطلب من الباب العالى ان يعطى أمة اليونان شيئا من الحرية والاستقلال فى ادارتها . وقدأجاب الباب العالى على هذا الطلب بانه لا يهب اليونانيين حقا جديدا الا بعد تمام خضوعهم وانه لا يقبل مطلقا تداخل أية دولة أوروبية أوكل الدول بينه وبين رعاياه

*
* *

أما المصريون فقد أتوا فى بلاد اليونان من الاعمال مايخلده لهم التاريخ وما يحق لمصر ان تفتخر به فى كل آن وفى كل زمان . فانهم خدموا الدولة العلية أكبر الخدم وأجلها وبرهنوا على ان المصرى اذا تعلم وتربى يقوم بأشرف الاعمال وأعظمها . فقد هزم المصريون اليونانيين شر هزيمة واستولوا

على كل بلادهم حتى ارتفعت أصوات أنصار اليونان في أوروبا ضدهم وسموا بطل مصر المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفاح اظهاراً لغيظهم من رجل قام بالواجب عليه نحو دولته وأمته وملته .

وقد قدمنا فيما سبق ان البحرية العثمانية كان أغلب عمالها من اليونانيين وكانت غير قادرة على قطع دابر اللصوص من الارخبيل وحدها فلما طلب المرحوم السلطان (محمود) من عزيز مصر ان يمده برجاله وسفنه أمر المرحوم (محمد على باشا) بارسال أساطيل مصر الفخمة الى مياه الارخبيل فاستعدت البواخر في الاسكندرية . ورأى عندئذ هذا الميناء الزاهر مظهر جلال مصر وقوتها فى البحر مما لم تر له طول حياتها مثيلا . وكان الرأى المنتشر حين ذاك بين قناصل دول أوروبا فى مصر ان مصر بقوتها وسلطتها تقهر وحدها بلاد اليونان وتعيدها خاضعة للدولة العلية قبل تمام ستة أشهر

وقد أتمت مصر تجهيزاتها الحربية فى ٩ يونيو سنة ١٨٢٤ ، وكان الاسطول المصرى مركبا من ثلاث وستين مركبا

حربيـة عظيمة ومن ثمانية آلاف جندي مصرى من خيرة الرجال . وكان مع الاسطول والجيش ذخيرة سنتين كاملتين

وبعد مبارحة الجنود المصرية لثغر الاسكندرية وقفت بجزيرة (كاكسوس) وأخضعتها وقهـرت أهلها الذين كان أغلبهم يعيش من النهب والسلب . وبعد ذلك بقليل استولى الاميرال التركى خسرو باشا على « ايبسارا » التى أتى أهلها من قبل اخضاع الدولة لها من الفظائع مايعجز القـلم عن وصـفه حتي انهـم قتلوا الكثيرين من أهل ساموس لعدم رضاهم بدفع شبه جزية لهم

وما أخذ المصريون والاتراك هذين الموقعين المهمين حتى نادى أنصار اليونان فى أوروبا بالويل والثبور ونشروا الاكاذيب والمفتريات عن دخول العثمانيين فى هذين البلدين مدعين انهـم ذبحوا الابرياء وقتلوا الاطفال والنساء . هذه العبارات نفسها التى تذكر في كل خـلاف يقع بين المسلمين والمسيحيين في الدولة العلية والتي لا تتغير وان تغيرت الظروف والحوادث . . . .

وفى أول سبتمبر عام ١٨٢٤ اجتمع المصريون والاتراك فى خليج (بودرون) تحت القيادة العامة لخسرو باشا. فلما علم (مياوليس) رئيس بحرية ثوار اليونان باجتماع هذه القوى العظيمة جمع سفن الثوار كلها بين (كوس) وجزيرة (كابارى) فوجه عندئذ (ابراهيم باشا) أسطوله الى جزيرة كريد حيث كان وصلها من الاسكندرية جنود أخرى وأسلحة وذخائر جديدة وجرى حين ذاك ان البحارة اليونانيين الذين كانوا تحت قيادة (مياوليس) طالبوه بماهياتهم ومرتباتهم الماضية وأنذروه بأنهم يعودون الى جزائرهم ولا يبقون بسفنه اذا لم يعطهم هذه المرتبات . فحار (مياوليس) فى أمره مع هؤلاء القوم الذين كان يظنهم شجعاناً أبطالا وخداماً للوطن اليونانى والذين كان يسميهم أنصار اليونان فى أوروبا برجال الحرية والاستقلال وبورثة اليونانيين القدماء ! ! !

فاضطر عندئذ (مياوليس) الى الذهاب الى مدينة (بوبلى) . وقد كانت هذه المدينة مركز حكومة اليونان الثورية

أما (ابراهيم باشا) فقد أتم كل تجهيزاته ومعداته وسار بأسطوله وجنوده قاصداً (مودون) بالمورة حيث وصلها فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٢٥ . وما استقر بها حتى أخذ يهيء الجيش للقتال والحرب . وفى ٢٥ مارس من السنة نفسها بدأ المصريون بمحاصرة مدينة (ناورين) الشهيرة ومدينة (بيلوس)

ولا يسل القارىء عن مقدار الاحتقار والازدراء الذى كان يظهره اليونانيون نحو الجنود المصرية المظفرة فقد كانوا يظنونهم نساء فى الحرب يهربون من ساحة القتال لاول طلقة نارية . ولكنهم لما اقتربوا منهم عرفوا أن أمامهم شجعانا كباراً وأبطالا يحق لمصر على مدى الدهر أن تفتخر بهم كل الفخار وحق لمحمد على ولابنه الكريم وقتئذ ويحق لسلالتهما من بعد ان تفاخر بهم جنود أعظم الامم المتمدنة

وفى كل واقعة حدثت بين المصريين واليونانيين كان اليونانيون يولون الادبار ويهربون مسلمين البلاد والمواقع !

وقد رأى (ابراهيم باشا) ان الاستيلاء على (ناورين) لا يكون الا بالاستيلاء على جزيرة (سفاكتيريا) فارسل

اليها حسين بك الجريدلى المشهور بشهامته العظيمة ونظره الصائب فى مسائل الاستحكامات العسكرية. فقهر جنود هذه الجزيرة اليونانية واستولى عليها . وما مضى الا ثلاثة أيام على استيلائه عليها حتى فتح أهالى (بيلوس) أبوابها وسألوا (ابراهيم باشا) أن يتركهم يهربون بدون ان يلحق بهم الاذى فقبل ذلك (ابراهيم باشا) وكانت نتيجة تسامحه الجميل ان أهالى (ناورين) لما تضايقوا من طول الحصار ويئسوا من الامر خابروه فى أمر تسليم المدينة اليه بعين الشروط التى سلمت بها (بيلوس) فرضى ابن عزيز مصر بطلبهم وسقطت (ناورين) فى أيدى المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٢٥

ولما رأى (ابراهيم باشا) ان اليونانيين امتلأت قلوبهم بالخوف منه ومن جنوده الاعزاء شرع في مهاجمة مدائن الموره ومعاقلها فاستولى بدون صعوبة تذكر على (نيزى) و (كالاماتا) وبلغ (تريبوليتسا) التى تركها اليونانيون وتركوا فيها ذخائرهم من شدة تسرعهم في الهروب منها . وفي ٢٦ يونيو من سنة ١٨٢٥ استولى (ابراهيم باشا) على

مدينة (أرجوس)

وقد جعل اليونانيون دأبهم وقتئذ حرق مساكنهم ومعاقلهم ومنازلهم وتخريب المدائن والقرى . وكان أنصار اليونان في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان ابراهيم باشا هو الذى يخرب مدائن اليونان . وقد بلغت قحة بعضهم ان سماه بالسفاح !

أما خسرو باشا فقد صدرت اليه أوامر الدولة بأن يسافر بأسطوله الى الاسكندرية حيث يستعد المرحوم (محمد على باشا) لارسال مدد جديد . فسافر اليها وكان المرحوم (ابراهيم باشا) أرسل كذلك بأسطوله اليها وبقى هو وجنوده فى الموره . فاهتم أمير مصر رحمه الله بتجنيد الجنود حتى تهيئوا جميعاً وكان عددهم احد عشر ألف مقاتل وسافروا من الاسكندرية بتاريخ ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٢٥ . وكان فى ذلك الحين (رشيد باشا) محاصراً لمدينة « ميسولونجى » التى كان المدد يصلها من اليونانيين من جهة البر وكانت محاطة ببرك عفنة انتشرت منها الامراض والحميات فى جيش رشيد

باشا مما أطال الحصار وأضر بالجيش العثمانى ضرراً بليغا . ولما علم بذلك (ابراهيم باشا) سافر بجنوده الى (ميسولونجى) وكانت الجنود المصرية وصلت عندئذ من مصر برفقة خسرو باشا فقوى عدد الجيش المصرى التركى المحاصر لهذه المدينة . وفى ٩ مارس سنة ١٨٢٦ استولى الجيش على قلعة (فازيليادى) وفي ١٣ منه سقطت (انتاليكون) فى أيدى العثمانيين ولما رأى قواد الجيش المصري التركى ان (ميسولونجى) واقعة فى أيديهم لا محالة وانها ان وقعت بغير التسليم من سكانها أسيلت فيها الدماء كتبوا الى أهلها بتسليم المدينة والاسلحة وخروج من يشاء الخروج منها وأعلنوا كل من يريد البقاء فيها انه يبقى آمنا مطمئنا

وقد جاء عندئذ (مياوليس) بأسطوله ووقف فى خليج (باتراس) ولكن الاسطول المصرى التركى هزمه شر هزيمة وقضى بهذه الهزيمة على كل آمال اليونانيين

وقد أراد اليونانيون المقيمون بميسولونجي الهجوم على الجيش المصرى التركى في مساء ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ ولكن

(ابراهيم باشا) وجنوده تنبهوا للامر وأطلقوا الرصاص عليهم فحصل بين اليونانيين فزع شديد وولوا الادبار وفى فجر يوم ٢٣ ابريل من السنة نفسها أى في اليوم التالى سقطت مدينة (ميسولونجى) فى أيدى الجنود العثمانية .

وفى شهر يونيو سنة ١٨٢٧ استولى الجيش العثماني على مدينة (آتينا) عاصمة اليونان الحالية . وقد أعجب كل منصف محب للانسانية بالخطة التى جرى عليها العثمانيون فى دخولهم آتينا حيث عاملوا أهلها بالرفق ولم يقتلوا ولم يهينوا أحدا ما بخلاف ماعمله اليونانيون مع المسلمين عند استيلائهم فى أول الثورة اليونانية على المدائن والقرى

وتفصيل أخذ آتينا بالعثمانيين ان اليونانيين استدعوا اليهم اللورد (كوشران) والسير (روبرشرش) الانكليزيين ليقودا جيوشهم وعصاباتهم فأجابا الطلب وسافرا الى اليونان وتوليا رئاسة الجيش اليونانى المحاصر فى آتينا

وقد أبدى الجيش العثمانى بقيادة (رشيد باشا) فى محاصرة آتينا من المهارة والشهامة ماأبقي له ذكرا عاطرا فى

التاريخ . فقد جمع هذا القائد العثمانى الجليل بين منتهى الشهامة العثمانية ومنتهى الانسانية التى أمر بها الشرع الشريف

وان انتصار جيش (رشيد باشا) على ثوار اليونان في آتينا لمن الانتصارات المعدودة في تاريخ الحروب البشرية . فقد كاد السير (روبرشرش) نفسه يقع أسيرا فى قبضة العثمانيين لولا انه عند الهزيمة ألقى بنفسه الى البحر حتى أدرك مركباً كانت بالقرب من الشاطىء

ولما رأى القائدان الانكليزيان ان لامناص من التسليم وسقوط أتينا وقلاعها فى أيدى العثمانيين سألا قومندان مركب (جومون) الفرنساوية أن يتوسط بين اليونانيين والعثمانيين فى أمر الصلح فاجاب سؤلهما وكتب بذلك الى (رشيد باشا) فقبل القائد العثماني الشروط التى عرضها عليه المسيو (لوبلان) قومندان مركب (جومون) وهى نزع السلاح من الجنود اليونانية وترك الحرية المطلقة لكل من أراد السفر من أتينا ومعاملة الذين يريدون البقاء فيها بالحسنى وعلى الخصوص الجرحى منهم . ولما علم السير (شرش)

بقبول (رشيد باشا) لهـذه الشروط فرح كثيرا واندهش غاية الاندهاش من هذا الاعتدال العظيم الذى أظهره ظافر كبير كرشيد باشا

ولـكن ثوار اليونان أرادوا أن يظهروا شيئا من الشهامة التى كان يترنم بها أنصارهم فى أوروبا فرفضوا هذه الشروط وأبوا تسليم قلاع أتينا . ولو كان (رشيد باشا) رجلاوحشيا كما قال عنه ذلك كذبا أنصار اليونان في اوروبا لكان دخل أتينا جوابا على وقاحة ثوار اليونان وشهامتهم الكاذبة وقضى عليهم وعلى جنودهم وضباطهم شر قضاء ولكنه تأنى فى الامر واستعمل الدعة التى جبل عليها رعاية للابرياء من سكان أتينا

الا ان (رشيد باشا) أنذر السير (شرش) بأنه اذا لم تسلم أتينا وقلاعها للجيش العثمانى فى أقرب زمن هاجم المدينة وكان حراً في عمله غير ملوم . فأرسل السير (شرش) بتاريخ ١٢ مايو سـنة ١٨٢٧ اعلانا لثوار أتينا وضباطها أمرهم فيـه بوجوب التسليم وأنذرهم بسوء العاقبة ان خالفوا أمره

ولـكن ثوار أتينا جروا على خطتهـم الاولى ورفضوا

الامتثال لاوامر السير (شرش) أى لاوامر قائدهم ورئيسهم
فلما رأى ذلك (رشيد باشا) كتب الى المسيو (لوبلان)
قومندان مركب (جومون) كتابا فى غاية اللطف والرقة
أظهر فيه انه عمل كل مافي وسعه للمحافظة على أرواح الابرياء
اليونانيين القاطنين بأتينا ولكن خطة ثوارهم تحمله على اتخاذ
طريقة أخرى للاستيلاء على أتينا . وعندئذ أعلن السير
(شرش) ثوار أتينا بأنه يتركهم وأنفسهم لعدم امتثالهم
لاوامره . فوقعوا فى حيص بيص وارتبكوا أشد الارتباك
وانتهزوا فرصة وجود مركب نمساوية فى الميناء فسألوا
قومندانها التوسط بينهم وبين (رشيد باشا) فى أمر تسليم
المدينة وقلاعها بطريقة سلمية . فسلم هذا الضابط النمساوى
طلبهم للمسيو (دى رينى) قومندان مركب (سيرين)
الفرنساوية فاستلم هذا الاخير الطلب وأخذ يخابر (رشيد
باشا) مدة ثلاثة أيام حتى قبل القائد العثمانى دخول آتينا
بالسلم وعدم سفك الدماء . وفى يوم ٥ يونيو سنة ١٨٢٧
أمضى زعماء الثورة اليونانية بآتينا على شروط تسليم المدينة

ورحلوا جميعا عنها بعد ذلك

وقد كتب المؤرخ الانكليزى (فنلي) فى كتابه (تاريخ اليونان) عن خطة (رشيد باشا) ودخوله آتينا ماتعريبه :

« لقد اكتسب (رشيد باشا) فى سقوط آتينا بخطته التي جرى عليها شرفا أبديا . وظهر فوق السير (روبرشرش) شهامة فى الحرب ورأيا فى السلم . ولم يترك العثمانيون وسيلة من وسائل الاحتراس الا أتوها . ولم ينتقموا أقل انتقام من اليونانيين »

*
* *

وقد توفى فى أول دسمبر عام ١٨٢٥ القيصر اسكندر الاول وتولى بعده (نيقولا الاول) . وماجلس هذا القيصر علي أريكة الملك حتي أعلن عداءه لتركيا وأرسل للحكومة العثمانية بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٢٦ انذارا يطلب منها فيه جملة طلبات مختصة بالافلاق والبغدان وبلاد الصرب وترك لها مهلة ستة أسابيع لقبول طلباته وأنذرها بأنها ان لم تقبل هذه الطلبات انقطعت العلائق السياسية بين الدولتين واشتعلت

نيران الحرب

فانتهزت انكلترا هـذه الفرصة للتقرب من الروسيا وأرسلت فى بادىء الامر الى بلاد اليونان ثم الى الاستانة سفيرا يعرض توسـط انكلترا بين الدولة العليـة واليونان فرفضت الدولة طلبه بعد ان قبله اليونانيون الذين كانوا فى أسوأ الحالات بفضـل (ابراهـيم باشا) بطل مصر وابن عزيزها فاغتاظت انكلترا من الدولة وعملت علي الاضرار بمصالحها والانتقام منها وأرسلت (والنجتون) الشهير ـ بطل واترلو التى هزم فيها نابليون ـ الى سان بطرسبورغ ليتفق مع القيصر علي المسئلة اليونانية ضد الدولة العلية وبالفعل اتفق معه وأمضى بينهما اتفاق يتضمن ان الروسيا تقبـل توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان وان بلاد اليونان تصـير مستقلة استقلالا نوعيا وانها تختار بنفسها حاكما عليها

ومن الغريب ان انكلترا لما لم تفلح فى أمر التوسط بين الدولة العلية واليونان أرادت أن تتوسط بالقوة والقهر وبالرغم عن الدولة العلية نفسها مستعينة فى ذلك بالروسـيا .

وهكذا كانت انكلترا تفهم معنى صـداقتها لتركيا ومعنى اخلاصها لملك آل عثمان؛

ولما رأى المرحوم السلطان (محمود الثانى) ان انكلترا والروسيا متفقتان ضـده اضطر الى قبول مطالب الروسـيا منتظرا الفرص المناسبة . وأرسل مندوبين من قبله للمخابرة مع مندوبي الروسيا فى أمر عقد معاهدة بين الدولتين .وقد اجتمع المنـدوبون فى (آق كرمان) ووضعوا بها فى سبتمبر عام ١٨٢٦ عهدة سميت باسم هذه المدينة تضمنت ان يكون للروسيا حق الملاحة فى البحر الاسود والمرور من البوغازين بدون ان تفتش الدولة سفنها وأن تكون بلاد الصرب مستقلة تقـريبا وتضمنت كذلك بعض شروط مختلفـة بامتيازات الافلاق والبغدان

ويقول بعض المؤرخين ان الذى حمل تركيا على قبول هذه المعاهدة غير اتفاق انكلترا والروسيا ضـدها هو تعهد الروسـيا صريحا للحكومة العثمانية بعدم التداخـل في صالح اليونان

وقد اجتهدت انكلترا بعد عقد هذه المعاهدة في استمالة فرنسا لها وللروسيا وتوصلت الى عقد اتفاق بينها وبين الدولتين لمساعدة اليونان ضد تركيا أمضى عليه في لوندره بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٢٧

*
* *

وقد كان هذا الاتفاق أساسا لواقعة (ناورين) الشهيرة فان الدول الثلاث لما رأت ان (ابراهيم باشا) فاز في المورة وانتصر نصراً مبيناً واخضع اليونانيين كافة وان الثورة قاربت الانتهاء وأخذ لهيبها في الانطفاء أمرت كل واحدة منها أميرال أسطولها بأن ينذر (ابراهيم باشا) بالوقوف عن كل عمل عدائى ضد اليونانيين وبالعودة الى الاسكندرية مع رجاله وأسطوله . فرفض (ابراهيم باشا) هذا الطلب أو هذا الانذار قائلا لكل أميرال انه لا يتبع غير أوامر أبيه وأوامر الدولة العلية . ولكنه لما رأى من قواد الاساطيل الاوروبية استعدادهم لاشهار الحرب لاسطوله وعدهم برفع بلاغهم الى الاستانة والى والده الجليل . واتفق معهم على هدنة وقتية

لحين ورود أوامر الدولة وأوامر أبيه

ولكن قواد الاساطيل لم يعملوا باتفاقهم مع (ابراهيم باشا) بل أخذوا يراقبون حركاته وسكناته ويشجعون خلافا لشروط الهدنة كل ضابط يونانى أو أوروبى فى خدمة اليونان على مهاجمة المدائن والمواقع التى وقعت فى قبضة (ابراهيم باشا) وجنوده فشجعوا اللورد كوشران على مهاجمة قلعة (فازيلادى) كما شجعوا غيره من الضباط. وقد احتج (ابراهيم باشا) على هذه الاعمال ولما رأى ان احتجاجه لدى قواد الاساطيل الاوروبية لم يفد شيئاً وتحقق من تشجيعهم اللورد كوشران على مهاجمة مدينة (باتراس) خرج من ميناء (ناورين) مع بعض مراكبه لانقاذ تلك المدينة التى كان بها فوق الالف مصرى. ولكن الاسطول الانكليزى أنذر (ابراهيم باشا) بالعودة الى (ناورين) فعاد هو وأسطوله احتراما للهدنة التى كان يذكره بها قواد الاساطيل الاوروبية وكانوا لا يذكرون بها أنفسهم

وجرى عندئذ ان (ابراهيم باشا) نزل الى البر وتوغل

فى الموره فانتهز قواد الاساطيل الدوليـة فرصـة غيابه عن الاساطيل المصرية العثمانية وأجمعوا على تدميرها . فأصـدر الامـيرال (كودرنجتون) الانكليزى — الذى كانت له القيادة العامـة على الاساطيـل الفرنساوية والروسـية والانكليزية — أمره باستعداد السفن الدولية وعين لـكل سـفينة مكانها وألقى التعليمات اللازمـة لـكل ضابط يقود مركبا . وفى يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ادعى الامـيرال (كودرنجتون) ان مركبا من المراكب المصرية قتل أحد بحارته انكليزيا من سفينة انكليزية . وجعل هذه الجريمـة المختلقة سببا لتـدمير المراكب المصرية والتركية فسلط عليها الاساطيل المتحدة الدوليـة حتي دمرتها عن آخرها وزالت هذه الاساطيل الفخمة فى يوم واحد حيث كان قومندانها الاول وأمـيرها الاعظم (ابراهيم باشا) متغيبا عنها ظانا أن قواد الاساطيل الاوروبية يحترمون كلامهم وعهودهم ! . .

ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر فى هذه المذبحة الشهيرة بستة آلاف بحرى . وقدعد أنصار اليونان

مذبحة (ناورين) بواقعة المجد والفخار . أما أنصار الحقيقة فقد قضوا عليها شر قضاء ووجهوا الملام أشد الملام الى حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا التى قامت باسم المدنية بأمر ليس فيه الا العار والشنار . وقد قال امبراطور النمسا وقتئذ عن حادثة « ناورين » بانها « مذبحة » !! ونعم التسمية وقال عنها جورج الرابع نفسه ملك انكلترا انها « حادثة مشئومة »

وقد تهيج الاحرار فى انكلترا ضد الاميرال « كودرنجتون » واعتبروا عمله وحشيا لاشرف فيه ولا فخار فاضطرت الحكومة الانكليزية لان تعلن عدم موافقتها على عمل « كودرنجتون » ولكنها لم تعلن عدم موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشى الا بعد حدوثه .... ويتضح من المستندات الرسمية التى لاتزال باقية فى وزارة البحرية الفرنساوية والتى أتى على بعضها المسيو « الفريدلميتر » فى كتابه عن استقلال اليونان ان حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا كانت متفقة من قبل على كل ماأتاه قواد أساطيلها . وقد قال الاميرال

« كودرنجتون » لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحة « ناورين » : « ان الوزراء يضحونني ليحفظوا مراكزهم »

أما (ابراهيم باشا) فقد عاد بعد المذبحة ولا يسألن القارىء عن تحسره الشديد على أسطوله العظيم الذى تركه زاهيا قويا وعاد فوجده أثرا بعد عين وعن عظيم اندهاشه من هذا العمل الفظيع الذى قام به دعاة المدنية وأنصار الحرية والانسانية . وقد احتج (ابراهيم باشا) أشد الاحتجاج على هذا العمل الوحشى وزاد احتجاجه واندهاشه عند ماعلم بالمطاعن السافلة التى كان يوجهها اليه الاميرال (كودرنجتون) وبان هذا الانكليزى الذى دمر الاساطيل المصرية والتركية بأسفل الطرق وأدنى الوسائل ادعى انه ـ أى ابراهيم باشا ـ هو الخائن للعهد الناكث لشروط الهدنة وانه المسبب لواقعة (ناورين)

وقد كتب الضابط الفرنساوى البحرى المسيو (بوجول) تاريخ مذبحة « ناورين » وأتى فيها على كل ماقاله له (ابراهيم باشا) عقب المذبحة . وانا نأتي هنا على ترجمة فصل يتضمن

تصريحات « ابراهيم باشا » بشأن تهم الاميرال كودرنجتون .

كتب المسيو بوجول ماترجمته :

« قال لى (ابراهيم باشا) عند زيارتى له : انهم يتهمون ابراهيم بأنه خان العهد ولم يحترم كلامه ولكننى مستعد لان أسافر لباريس وللوندره اذا اقتضى الحال ذلك لاظهر الحقيقة ولكى يحمل الذين أسالوا دماء الابرياء وحدهم الفضيحة والملامة . وما أنشئت السفن الا لتكون فريسة النار أو البحار فلذلك لست اليوم آسفا عليها . ولكن اتهامى بانى خنت عهودى هو وشاية سافلة . وانى أعتمد على شرفك ياحضرة الضابط لتبلغ كلمة بكلمة الى أميرالك ماقلته لك

فقل له ان ثانى يوم لواقعة « ناورين » دعا الاميرال الانكليزى الاميرال التركى الى مركب انكليزية ووشى له بانى قدمت اليه مبالغ طائلة ليساعدنى على الاستقلال بمصر من الدولة العلية ومن التابعية للحضرة السلطانية وقال له باني خائن وأشار عليه بتبليغ ذلك للضباط والبحارة الاتراك . فماذا يقال عن هذا السلوك وعن هذا الغش؟ أولم تبلغ الوقاحة

بالاميرال الانكليزى انه طلب من الاميرال التركى ان يسلمه امرأة من نسائى ؟ »

وانه ليسهل على القارىء ان يحكم بعد اطلاعه على أقوال « ابراهيم باشا » أى الرجلين صادق . أأبراهيم ذلك البطل النادر المثال الذى عامل ثوار اليونان بعد انتصاره عليهم النصر المبين بالرأفة والرحمة وما سفك للابرياء دما . ذلك الذى احترم عهده . أم كدرنجتون الذى تولى أمر تدمير أساطيل لم تعاده أقل عداء وخان بذلك عهده وكلامه وشرفه بل لطخ أوروبا والمدنية الغربية بدنس الفضيحة والعار .

*
* *

وبينما كانت الدول الثلاث تتداخل لصالح اليونانيين وتسفك دماء الابرياء لاجلهم وتدمر الاساطيل غدرا لمساعدتهم ونصرتهم كان اليونانيون يهجمون على سفن التجارة الاوروبية ويسرقون كل مافيها من المتاجر والمصانع والاموال . وقد أيد هذه الحقيقة الاميرال الفرنساوى «دى رينى» نفسه وكتب جملة كتب على هذه السرقات الفظيعة والتعديات

المتعددة الى وزارة البحرية الفرنساوية وقد قال فى كتاب من كتبه (ان عدد السفن التى اعتدى اليونانيون عليها وسرقوا مابها بلغ فى شهر واحد ستين سفينة) فليعجب القارىء بقوم تحارب أوروبا لاجلهم وتخون عهدها حبا فيهم ويلطخ قواد أساطيلها شرفهم وشرف دولهم بمذبحة (ناورين) وهم يجيبونها على هذا التناهى فى الاحسان بالتناهى فى اساءة رعاياها وسرقة أمتعتهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم !!!

*
* *

وقد طلبت الحكومة العثمانية من الدول الثلاث ترضية علنية لمذبحة « ناورين » فرفضت الدول طلبها ولم تكتف برفضه فقط بل طلبت منها ان تقبل مطالبها المشتركة بشأن اليونان وان تعلن استقلالها فأجابت الدولة على هذا الطلب الغريب بالاندهاش والاستغراب والرفض . فبارح عندئذ سفراء انكلترا والروسيا وفرنسا الاستانة بتاريخ ٨ دسمبر سنة ١٨٢٧

وفى ١٢ دسمبر من السنة نفسها تجدد بين الدول الثلاث

اتفاق لوندره السالف الذكر . وأخذت الروسيا من ذلك العهد تعمل لاعلان الحرب بينها وبين الدولة العلية . وبتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٨٢٨ أشهرت بالفعل اعلانها الحرب لتركيا. وفى ٧ مايو اجتازت الجنود الروسية نهر (بروث)

ولا شك ان الدولة العلية كانت وقتئذ فى أشد الاخطار وكانت أزمتها شديدة قوية فان الروسيا أظهرت عداءها لها باشهار الحرب عليها . وانكلترا أظهرت عداءها لها بمساعدة اليونانيين فى السر والجهر وبترك أسطولها واقفا فى مياه الشرق يهدد موانيها وبعقد المؤتمرات المختلفة لاعلان استقلال اليونان بالرغم عن اخضاع (ابراهيم باشا) لثورويهم وانطفاء نار الفتنة . وفرنسا اشتركت فى هذه العداوة بارسال جيش جرار تحت قيادة الجنرال « ميزون » الى بلاد اليونان

وقد رأى عندئذ المرحوم « محمد على باشا » بنظره الصائب ان الدول الثلاث متفقة كلها ضد الدولة العلية وأن مأمورية مصر قد انتهت بقمع الثورة اليونانية فأصدر أمره الى ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالعودة هو وجنوده الى

الوطن العزيز فصدع بأمر والده وعاد لمصر . حيث احتلت الجنود الفرنساوية المواقع والبلاد التى أخلتها جنود مصر

وبذلك يرى القارىء ان الدول الثلاث كانت تعمل فى آن واحد ضد الدولة العلية وكانت الدولة بلا نصير ينصرها ولا صديق يساعدها وكانت النمسا تعضدها بالقول فى الباطن وتعلن فى الظاهر صداقتها للروسيا شأنها فى سياستها على الدوام . فضلا عن ان الجيش العثمانى كان حديث التشكيل لان المرحوم السلطان (محمود) قد ألغى طائفة الانكشارية

ومع ذلك فقد أظهرت الجنود العثمانية فى الحرب مع الروسيا من الشهامة والثبات ماحير رجال الحرب فى أوروبا وأدهش الروسيين . فان الجيش الروسى مع عظيم استعداده وكثرة عدده لم يستول على «وارنا» الا بعد صعوبات جمة ولم يستطع أخذ مدينة شوملا . واضطر للرجوع الى الوراء فى شهرى اكتوبر ونوفمبر بعد ان خسر الخسائر الجمة . وقد قارن وقتئذ (مترنيخ) وزير النمسا الاول تقهقر الروسيين

فى هذه الحرب بتقهقر نابليون فى عام ١٨١٢

وقد استمرت الحرب فى عام ١٨٢٩ . ولـكن الجنود العثمانية التى كانت مشكلة حديثاً كما قدمنا لم تستطع مقاومة الجيش الروسى تمـام المقاومة فاستولى هذا الجيش على مدينة (اسكى استانبول) واجتاز جبال البلقان وبلغ فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٩ مدينة (أدرنه) . وبالرغم عن هذه الانتصارات فان القيصر نيقولا الاول كان يخاف الهزيمة لمـا رأى عنـد الجيش العثماني من الدراية والـكفاءة في سنة ١٨٢٨ ولذلك سأل ملك بروسيا أن يتوسط فى أمر الصلح بينه وبين الدولة العلية . فقبل ملك بروسيا ذلك وتوسط بالفعل فى أمر الصلح وفى ٤ سبتمبر من السنة نفسها أمضت الروسيا والدولة العلية على معاهدة (أدرنه) . وهي تتضمن استيلاء الروس على جملة مواقع اسـيوية وضمانة حقوق الافلاق والبغـدان وصربيا وحرية مرور السفن الروسية من بوغازى الدردنيل والبوسفور وحرية التجارة للرعايا الروسيين وتتضمن أيضا ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حربية تبلغ الخمسة ملايين ونصف

من الجنيهات . وان الدولة العلية تقبل ماتفقت عليـه الدول بشأن اليونان

وهذا الاتفاق بين الدول بشأن المسئلة اليونانية لم يكن مشتملا الا على جعل بلاد اليونان مستقلة تمام الاستقلال ! وقد أمضت الدول في لوندره بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ على معاهدة بهذا المعنى

وبذلك انتهت هـذه الازمة الشديدة وتم استقلال اليونان . وان القارىء يجـد من خلال هذه السطور ومن مطالعة هذه الحوادث الحكم الصحيح على خطة الدول نحو الدولة العلية ويرى كيف انها أخرجت من تحت حكم الدولة بلاد اليونان بحجة المسيحية والمدنية مع ان الروسـيا جزأت من قبل مع البروسيا والنمسا بلاد بولونيا ولم ترع للمسيحية حرمة ولا للمدنية مقاما !

وهكذا الغـرض في كل الامور يعمي الدول كما يعمى الافراد

الازمة الثانية

﴿ مسئلة الشام ﴾

(بين مصر والدولة العلية)

ان هذه الازمة هى الازمة التى اذا تذكرها العثمانيون والمسلمون امتلأوا حسرة وأسفا اكثر من كل أزمة سواها لانها أعظم شقاق وقع بين التابع والمتبوع وبين مصر والدولة العلية أى بين قلب الخلافة الاسلامية وهذه الخلافة نفسها وبين روح المملكة العثمانية وهذه المملكة

وسيجد القارىء في هذا الفصل تفاصيل هذه الازمة المشئومة وما جرت على الدولة ومصر والاسلام من الاضرار والمصائب مما يبقى أبد الدهر درسا للعثمانيين والمسلمين ونذيرا بأن الشقاق بين أعضاء مجموع واحد يعود على المجموع كله وعلى أعضائه عضواً عضواً بالمصائب العظام والبلايا الجسام

ابتدأت هذه الازمة بخلاف وقع بين عزيز مصر ووالى (عكا) بسبب مهاجرة بعض المصريين الى الشام

حيث لم يرض والى (عكا) بأن يعيدهم الى مصر طبقا لرغائب المرحوم (محمد على باشا) . فأمر عزيز مصر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفر الى بلاد الشام علي رأس جيش جرار للانتقام من هذا الوالى فسافر واستولى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ على (عكا) وبعد الاستيلاء عليها دخل هو وجيشه دمشق وحمص وعبر جبال طوروس بعد معارك مختلفة بين الجيش المصرى والجيش التركى

وقد انتهت سنة ١٨٣٢ بوصول المرحوم (ابراهيم باشا) الى قلب آسيا الصغرى حيث وقعت بين عساكر مصر وعساكر الدولة واقعة (قونيه) الشهيرة التى انتهت بسقوط هذه المدينة فى أيدى المرحوم « ابراهيم باشا » . وكان ذلك في ٢١ دسمبر سنة ١٨٣٢ ـ وقد وقع فى هذه الواقعة أسيرا فى أيدى المصريين المرحوم « رشيد باشا » الذى كان يقود الجيش التركى امام « ابراهيم باشا » والذى كان من قبل في بلاد اليونان مكلفا بقمع الثورة اليونانية

ولا شك ان هذه الانتصارات المتوالية تدل من جهة

على ما كان لمصر وقتئذ من القوة الهائلة وتحمل الانسان من جهة أخرى على التساءل كيف تقهقر الاتراك الابطال في هذه المواقع . فالجواب على ذلك ان المرحوم السلطان (محمود الثاني) كان قد ألغى طائفة الانكشارية كما قدمنا وكان مشتغلا بتنظيم جيش جديد عند ماقام المرحوم (محمد على باشا) باحداث هذه الازمة المشئومة ولم يكن الجيش التركى الجديد مستعدا تمام الاستعداد للقتال

وكان من نتيجة هذا الخلاف المشئوم بين مصر والدولة العلية ان المرحوم السلطان (محمود الثانى) اضطر للاستنصار بالدول الاوروبية . فانتهزت الروسيا هذه الفرصة لتقوية نفوذها فى تركيا وجعل سيطرتها عظيمة على الباب العالي فأظهرت للدولة العلية استعدادها لمساعدتها ضد عزيز مصر وأرسلت الى الاستانه الكونت (مورافييف) أحد ضباط القيصر الخصوصيين مكلفا بتبليغ الباب العالى ان الحكومة الروسية تقدم اليه اذا أراد أسطولا قويا وجيشا عظيما لنصرة الدولة ضد عزيز مصر ومكلفا كذلك بالسفر الى الاسكندرية

لاقناع المرحوم (محمد على باشا) بضرورة الاتفاق مع الدولة والرجوع عن نواياه ومشروعاته ضدها

وبالفعل ذهب (مورافييف) الى الاستانة فاستقبل رجال الدولة بلاغه بالرضى مع الحزن الشديد على هذه الحالة التى وصلوا اليها بسبب الشقاق المشئوم بين المتبوع الاعظم والتابع أى بين خليفة الاسلام وأكبر أمرائه

وقد سافر الكونت (مورافييف) من الاستانة الى الاسكندرية فى يناير عام ١٨٣٣ بقصد اقناع عزيز مصر بوجوب حل المشكلة حلا سلمياً

هذه كانت سياسة الروسيا وسيرى القارىء نتائجها السيئة على الدولة العثمانية . أما البروسيا فلم تتداخل فى الامر بل تركت بقية الدول الاوروبية مشتغلة بالمسئلة وانتظرت النتيجة . وقد ود بعض سواس النمسا أن تتداخل دولتهم فى هذه الازمة المهمة لتحول دون أغراض الروسيا ولكن القابضين على أمور المملكة النمساوية حينئذ رأوا ان الثورة تهدد دولتهم من كل جانب وانهم فى حاجة شديدة لعضد

الروسيا ومساعدتها فالتزموا لهذا السبب الحياد واختاروا سياسة مراقبة الحوادث والانتظار

اما انكلترا فقد كانت أميالها من بادىء الامر ضد أميال عزيز مصر . ولكنها كانت تخاف اضعاف نفوذها فى تركيا بتقوية نفوذ الروسيا فكانت تريد العمل ضد الروسيا ومساعدة تركيا فى آن واحد غير ان ايرلندا كانت فى ذلك الحين قائمة بالثورة ضد بريطانيا رغبة فى نيل حريتها واستقلالها فبقيت لذلك انكلترا مترددة فى سياستها

ولم يكن لعزيز مصر بين الدول الاوروبية دولة تريد نصرته فى السر والجهر غير فرنسا . فان الرأى العام فيها كان يحب (محمد على باشا) حباً شديداً وكانت أعمال عزيز مصر ومجهوداته فى سبيل رفع شأن مصر وتمدينها معروفة في فرنسا ومقدرة فيها حق قدرها لاسيما وان أغلب عمال عزيز مصر فى تمدين مصر كانوا من الفرنساويين. وكان بين (لويس فيليب) ملك فرنسا وبين (محمد على باشا) مودة شديدة وصداقة متينة .

الا ان سفير فرنسا فى الاستانة كان يخاف سقوط نفوذ دولته فى المملكة العثمانية بقدر ارتفاعه وازدياده في مصر فعرض على الباب العالى ان يتوسط بينه وبين أمير مصر وكتب الى المرحوم « ابراهيم باشا » يرجوه باسم فرنسا الا يتقدم فى فتوحاته وكتب الى المرحوم (محمد على باشا) يسأله ان يقبل الشروط التى أرسل بها اليه المرحوم السلطان (محمود الثانى) مع خليل باشا . وهذه الشروط كانت تنحصر في تنازل الدولة لعزيز مصر عن ولايات (عكا ونابلس وصيدا وبيت المقدس) . ولكن (محمد علي باشا) كان يريد الاستيلاء على الشام كلها وكان قنصل فرنسا بمصر يشجعه على أمياله وأغراضه . فلذلك لم يقبل عزيز مصر الشروط السلطانية التى عرضها عليه خليل باشا ولم يلق رجاء سفير فرنسا بالاستانه عنده قبولا لانه اعتبره مجاملة لتركيا وغير صادر عن تعليمات سياسية واردة من الحكومة الفرنساوية . وأمر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالتقدم في فتوحاته فصدع بالامر وتقدم الى ان وصل مدينة « كوتاهيه »

فلما علم المرحوم السلطان « محمود الثانى » بذلك سأل الروسيا فى آخر يناير سنة ١٨٣٣ أن ترسل اليه بأسطولها فوعدته بذلك . وفى هذه الاثناء عاد « مورافييف » من الاسكندرية وكان قد نجح فى مأموريته لدى « محمد على باشا » بعض النجاح فأعلن الباب العالي أن أمير مصر وعده وأصدر أمره لابنه بالوقوف عن التقدم في فتوحاته . فلما علمت الدول الاوروبية بذلك رأت ان مجىء الاسطول الروسى الي مياه البوسفور صار غير لازم فسألت الباب العالي ان يجعل وقوفه ببلاد القرم ولكن الروسيا كان يهمها ان يظهر أسطولها فى مياه الشرق ويعلم المسلمون قبل المسيحيين انها صارت الحامية للمملكة العثمانية والامينة على مصالح دولة آل عثمان ! ! !

فجاء الاسطول الروسى الي مياه البوسفور وجعل مرساه امام سراى السلطان وبعد وصوله بأيام قليلة وصل جزء من الجيش الروسى الى الاستانة وأقام بها . فهاجت لذلك انكلترا والنمسا وفرنسا وطلبت من الدولة العلية

الاسراع بالاتفاق مع عزيز مصر وابعاد العساكر الروسية عن أراضي الدولة . فقبل المرحوم السلطان « محمود الثانى » طلب الدول الثلاث وبعد مخابرات مختلفة أعلنت الدولةالعلية فى أوائل مايو سنة ١٨٣٣ بخطين شريفين أنهاعينت أميرمصر واليا على الشام وعلى ولاية « أطنه » . وقد سمى هذا الاتفاق الذى صدر به الخطان الشريفان باتفاق « كوتاهية » نسبة الي المدينة التى كان محتلا لها « ابراهيم باشا » عند عقد هذا الاتفاق

ولما صدرهذان الخطان الشريفان سألت الدول الاوروبية الدولة الروسية ان تسحب أسطولها من مياه البوسفور وجنودها من أراضي الدولة فأجابت الطلب ولكنها لم تنفذه الا بعد ان أمضت مع الدولة العلية على معاهدة « خورنكار اسكله سى » التى جعلت للروسيا فى الدولة العلية نفوذا قوياً وسلطة عظيمة

ومضمون هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتحالف مع الروسيا تحالفا دفاعياً وان تتعهد كل واحدة منهما بمساعدة

الاخرى فى داخل بلادها أو فى خارجها حسب الظروف .
ولا شك ان ظاهر هذه المعاهدة لا يفيد شيئا غريباً ولكن
المتأمل يرى ان الدولة الروسية كانت غير واقعة وقتئذ تحت
خطر . فكان من المستحيل ان ترسل الدولة العلية يوماً ما
جيشاً تركيا لداخل البلاد الروسية بخلافها فانها كانت واقعة
تحت خطر ظاهر وكان احتمال دخول الجنود الروسية الى
قلب المملكة العثمانية حاصلا . ذلك فضلا عن ان الروسيا
كان فى استطاعتها ان تحدث فى قلب الدولة من الاضطرابات
ماتشاء لما كان لها فيها من الآلات القوية . أى انه كان
يمكنها ان ترسل بجنودها الى داخل الدولة فى أى وقت تريد

والذى يثبت ان دخول الجيوش العثمانية الى قلب المملكة
الروسية كان مستحيلا حتى فى حالة قيام الحرب بين الروسيا
وبين احدى الدول خلافا لظاهر معاهدة (خونكاراسكله سى)
ان الروسيا اشترطت فى آخر المعاهدة ان الدولة العلية غير
ملزمة بارسال مدد عسكرى اليها فى حالة وقوع الحرب بينها
وبين احدى الدول بل يكفيها عوضا عن ارسال مدد

عسكرى ان تقفل بوغاز الدردنيل أمام أساطيل الدولة أو الدول المحاربة للروسيا

وقد علمت فرنسا وانكلترا بهذه المعاهدة وعملت كلتاهما على ابطالها ولكن مسعاهما لم ينجح وتكدرت بذلك علائقهما مع الروسيا

*
* *

ولم يسر حكم هذا الاتفاق طويلا فان انكلترا التى كان يسوءها استتباب السكينة والسلام فى الشرق والتى اقتضت سياستها فى كل أطوار المسئلة الشرقية اضعاف سلطة المسلمين عملت على تحريض الدولة العلية على الاخذ بالثار والانتقام من عزيز مصر . وفضلا عن اهتمام انكلترا باضعاف السلطة الاسلامية فى الاستانة ومصر فانه كان يروق لها ان تأخذ المركز الاول فى النفوذ لدى الباب العالى وتخفض من نفوذ الروسيا وسلطتها . فلذلك استمرت تحرض الدولة على الانتقام من (محمد على باشا) ووجدت عند رجال الدولة آذانا صاغية لان قلوبهم كانت قد تغيرت من جهة مصر

وأميرها وتركت فيها حوادث الشام آلاما كبارا

وقد نجحت انكلترا فى هـذه السياسة وعقـدت مع الباب العالى اتفاقا تجاريا يخول لها كل ما للروسيا من الحقوق والامتيازات وقابلت ثقة تركيا بها بان استعدت لاحتـلال (عدن) كأنها أرادت ان تعرف الحكومة العثمانية مقـدار ثمن المودة الانكليزية ....

ومع ذلك فقـد اتبعت الدولة العليـة آراء الانكليز ونصائحهم وسيرت جيشاً جرارا الى آسيا تحت قيادة (حافظ باشا) . فعبر هذا الجيش نهر الفرات فى ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ وفى ٧ يونيو من السنة نفسها أعلنت الدولة العلية الحرب على جيوش مصر . وقـد كان المرحوم (محمد على باشا) علم من قبل باستعداد الدولة لمحاربته واخراجـه من الشام فتأهب للقتال واستعد أكمل استعداد

فلما علمت الدول الاوروبيـة باستعداد الدولة العليـة للحرب اهتمت كلها بالمسئلة وأخذت انكلترا تبذل الجهـد فى استمالة فرنسا اليها والاتفاق معها على مساعدة تركيا ضد

(محمد علي باشا) واضعاف نفوذ الروسيا فى الدولة العليـة . ولـكن فرنسا لم تقبـل الاتفاق مع انكلترا ضد عزيز مصر لما كان له عندها وعنـد الشعب الفرنساوى من الاحـترام العظيم والـكلمة العليا

وقد قام وقتئذ الخطباء على منبر مجلس النواب الفرنساوى بالقاء الخطب البليغة دفاعا عن أميال عزيز مصر وأغراضـه السياسية سائلين حكومتهم مساعدته ومنع كل عمل عدائى ضده . ولم يظهر الرأى العام الفرنساوى قوته وشـدة تأثيره على حكومته فى ظروف كثيرة مثل ما أظهر فى مسئلة الخلاف بين مصر والدولة العلية فانه كان منتصراً لعزيز مصر أشـد الانتصار

وقد أدى رفض فرنسا لطلب انكلترا الى اتفاق هذه الدولة مع الروسيا اتفاقا مبدئيا ضد عزيز مصر

أما النمسا فقد عرضت على الدول مشروع عقد مؤتمر بفيينا لحل المشكلة المصرية . فلم تقبل الروسيا هـذا الطلب خوفا من تداخل الدول في شؤون تركيا الداخلية واضعاف

نفوذها بمثل هـذا التداخل . ورفضت فرنسا كذلك طلب النمسا منعاً لاتفاق الدول ضد (محمد على باشا)

وبينما الدول مشتغلة بهذا الخلاف الخطير اذ انتشر خبر واقعة (نصيبين) أو «نزيب» التى انتصر فيها الجيش المصرى بقيادة « ابراهيم باشا » على الجيش التركى فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ . وبعـد هـذه الواقعة بأسبوع واحد توفى المرحوم السلطان (محمود الثانى) ولم تكن وصلته أخبار واقعة « نصيبين » لعدم وجود الاسلاك البرقية وقتئذ . وتولى بعده على الاريكة العثمانية ابنه السلطان الغازى (عبد المجيد خان)

وفي ٤ يوليو من السنة نفسها شرع أحمد باشا القبودان الاول للاسطول العثمانى في تسليم هذا الاسطول لعزيز مصر وسبب ذلك انه كان يبغض خسرو باشا الصدر الاعظم بغضاً شـديدا ويميل كثيرا الى عزيز مصر . فلما علمت الدول الاوروبية بهذا النبأ الغريب أرسلت مذكرة الى الباب العالى بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ تفيده انها متفقة كلها على مساعدته فى هـذه الازمة ودفع الخطر عن المملـكة العثمانيـة . وقد

اشتركت فرنسا مع بقية الدول في ارسال هذه المذكرة ولم يكن قصدها بذلك الاشتراك معها ضد (محمد على باشا) بل منع اتفاقها ضده اتفاقا حربيا

وبناء على رجاء فرنسا لم يتقدم « ابراهيم باشا » بعد « نصيبين » بل وقف عندها

وقد عرض وقتئذ بالمرستون وزير خارجية انكلترا على الدول الاوروبية ان ترسل جميعها انذارا لعزيز مصر تأمره فيه بسحب جنوده من الشام والاكتفاء بأمارته على مصر وتهدده بأنها تنفذ مطالبها بالقوة ان لم يرض بها ويذعن اليها . فعارضت فرنسا مطلب بالمرستون أشدالمعارضة وطلبت باسم (محمد على باشا) تعيينه أميرا على مصر والشام وبلاد العرب واستمر الجدال بين حكومتي باريس ولوندره طويلا واشتدت لهجةالسياسيين من الجانبين كمااشتدت لهجة جرائد الدولتين وتكدرت عقب ذلك العلائق بين الحكومتين . فسعت الروسيا فى ان تضم اليها انكلترا وتجعل مابين هذه وفرنسا من الخلاف أساسا لوفاق يوضع بينها وبين انكلترا

وأرسلت لهـذا الغرض البارون دى (برونو) للوندره . ولـكن بعض وزراء الحـكومـة الانكليزية كانوا يخالفون بالمرستون رأيا وكانوا يودون الاتفاق مع فرنسا . فلم يتم لهذا السبب بين انكلترا والروسيا الاتفاق وعاد البارون دى (برونو) الى سأن بطرسبورغ ليتلقى تعليمات جديدة

وقد زاد وقتئذ تهيج الشعب الفرنساوى فى صالح عزيز مصر ازديادا هائلا وخاف « لويس فيليب » ملك فرنسا من عواقب هـذا التهيج فأمر بارجاع بقايا « نابليون الاول » من جزيرة سانت هيلينه ودفنها بباريس فى موكب حافل ليشتغل الشعب الفرنساوى عن مصر وأميرها بذكرى نابليون الاول وذكرى فتوحاته وانتصاراته العديدة . وبالفعل جىء بجثة نابليون الاول وسارت فى باريس فى موكب لم ير له مثيل لا فى جلاله ولا فى فخامته . ممـا حول أنظار الشعب الفرنساوى عن مصر كثيرا لا قليلا

أما انكلترا فقد اتفق سواسها مع البارون دى « برونو » بعـد عودته من الروسيا ودعوا الدول الاوروبيـة لارسال

مندوبين من قبلها لحضور مؤتمر يعقد بلوندره لحل المشكلة المصريه . وقد اشتركت فرنسا فى هذا المؤتمر غيران سفيرها بلوندره المسيو « جيزو » الشهير وجه عنايته كلها لمد أجل المؤتمر ومنع الدول من الوصول الى اتفاق نهائى لأن الحكومة الفرنساويه كانت مشتغلة سرا بالتوسط بين تركيا ومصر وكانت تؤمل بلوغ نتيجة مرضية لعزيز مصر بدون تداخل الدول الاخرى .

وقد نجحت فرنسا فى مخابراتها السرية مع مصر والباب العالى بعض النجاح وتوصلت الى عزل «خسرو باشا» الصدر الاعظم . الا ان « بونسونبى » سفير انكلترا بالاستانة علم بمخابرات فرنسا السرية وأبلغ حكومته هذا الخبر العظيم الاهمية . فهاج (بالمرستون) لذلك واغتاظ كثيرا وصمم على الانتقام من فرنسا فدس الدسائس ضد (محمد على باشا) فى الشام وأقام أهلها ضده وعمل على عقد اتفاق بين انكلترا والروسيا والنمسا والبروسيا أى بين كل دول أوروبا ماعدا فرنسا . وبالفعل عقد هذا الاتفاق وأمضى مندوبو الدول

الاربع فى لوندره بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ على اتفاقية مختصة بالمشكلة المصرية

وهذه الاتفاقية تضمنت ان (محمد على باشا) يرد الى الدولة جزيرة كريد وبيت المقدس وأطنه وبلادالشام الشمالية وان يحفظ له ولابنائه من بعده مصر ويتولى ولاية « عكا » مدة حياته . وانه ان لم يخضع لاوامر الدول فى مدة عشرة أيام من تاريخ ارسال الانذار الدولى اليه لاتترك الدول له غير مصر وان لم يخضع في مدة عشرة أيام أخرى لاتترك له مصر نفسها وتضمنت هذه الاتفاقية غير ذلك ان الدول تشترك فى بوغازي الاستانة والدردانيل ضد كل اعتداء

وقد اتفق مندوبو الدول فى هذه الاتفاقية على انها تنفذ قبل توقيع دولهم عليها اذا اقتضى الحال ذلك

وما علم (لويس فيليب) ملك فرنسا بهذه الاتفاقية حتى أعلن غضبه وسخطه ووافق وزيره الاول (تييرس) على الاستعداد للحرب فجند هذا الاخير الجنود الفرنساوية وجمع الرديف واشتغل بتحصين الحدود وساعد الجرائد على

تهييجها الشعب ضد دول أوروبا . فتهيجت فرنسا كلها منادية بالانتقام لها وللامير مصر من دول أوروبا

وفى ١١ سبتمبر سنة ١٨٤٠ ضرب الاميرال الانكليزى (نابييه) ثغر بيروت وجبر (ابراهيم باشا) على اخلاء هذا الثغر . وبعد اخلائه بثلاثة أيام أعلن الباب العالى عزل (محمد علي باشا) من امارة مصر نفسها وكان ذلك بناء علي ايعاز (بونسونبى) سفير انكلترا بالاستانة . فأحدثت هاتان الحادثتان فى فرنسا تأثيراً شديداً وهياجا عظيما مما جعل عناية الحكومة الفرنساوية بتتميم استعداداتها الحربية عظيمة شديدة وصير الحرب قاب قوسين أوأدنى

وقد استعفى بعد ذلك بقليل المسيو (تييرس) من رئاسة الوزارة الفرنساوية وعين مكانه المرشال (سولت) وتقلد المسيو (جيزو) سفير فرنسا بانكلترا منصب وزارة الخارجية . فبذل أقصى جهده فى تعديل اتفاقية ١٥ يوليو التى عقدت بين الدول الاربع في لوندره ولكنه لم يفلح فى مسعاه لشدة كراهة (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا

لفرنسا ولعزيز مصر

وفى ذلك العهد جاءت الاخبار من الشام مؤيدة آمال بالمرستون فان الاسطول الانكليزى والاسطول النمساوى استوليا على أهم الموانى السورية وخرجت (عكا) نفسها من أيدى الجنود المصرية في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ـ ولم يستطع المرحوم (محمدعلى باشا) قمع الهيجان الذى أحدثته الدسائس الانكليزية ضده فى الشام . فسر بالمرستون بهذه الاخبار وأراد ان يزيد الطين بلة ويجعل الاضطراب عاماً في كل انحاء أوروبا فاقترح على الدول الاوروبية عزل (محمد على باشا) من امارة مصر نفسها واخراجه هو وعائلته من الديار المصرية . فازداد لذلك الهياج فى فرنسا ازديادا هائلا وحمل المسيو (تيبرس) فى مجلس النواب الفرنساوى على الوزارة حملة شديدة متهما اياها بترك انكلترا تنتقم من (محمد على باشا) صديق فرنسا الحميم فأجاب المسيو (جيزو) وزير خارجية فرنسا على اعتراضات (تييرس) وغيره من الخطباء بأن فرنسا لاتقبل أبداً نزع امارة مصر من أيدى (محمد

علي باشا) وأبنائه من بعده وأنها مستعدة للدفاع عن حقوقه في مصر ولو اضطرت الى الحرب . فأدركت أوروبا من لهجة الحكومة الفرنساوية ان قبول اقتراح بالمرستون يكون داعية لحرب عامة وأصلا لمصائب جمة فرفضته ارضاء لفرنسا ومنعاً للحرب وعواقبها الوخيمة

ولم يخضع المرحوم (محمد على باشا) لأوامر الدول الاوروبية الا عندما رأى ان فرنسا غير قادرة على مقاومة أوروبا كلها وان الأميرال الانكليزى (نابيه) يهدد ثغر الاسكندرية ان بقي مستمرا على المقاومة وعدم الامتثال لاوامر الدول . فأمضى معه اتفاقية تعهد فيها بسحب الجنود المصرية من الشام وتعهد له فيها الاميرال (نابيه) بجعل امارة مصر له ولأبنائه من بعده . وما وصل خبر هذه الاتفاقية الى الاستانة حتى أشار «بونسوني» سفير انكلترا بها على الباب العالى برفضها فرفضها وصرح بأنه لا يقبل جعل امارة مصر وراثية لعائلة (محمد على باشا) بل له وحده مدة حياته

فلما علمت فرنسا بذلك عرضت حكومتها على مجلس النواب مشروع تحصين مدينة باريس أى اتمام الاستعدادات الحربية فأقر المجلس على المشروع بارتياح تام وأيد الحكومة فى خطتها ودفاعها عن حقوق مؤسس العائلة الخديوية . فاضطربت حكومة النمسا وحكومة البروسيا عندما تحققت ان استعدادات فرنسا للحرب حقيقيـة وان الاعتداء على حقوق (محمد على باشا) وسلالته فى مصر يكون سببا لحرب عموميـة فى أوروبا . واتفقتا على منع الحرب بكل الوسائل وتأييد « محمد علي باشا » وسلالته من بعـده فى امارة مصر وجبرتا بالفعل انكلترا والروسيا على تقديم مذكرة مشتركة معهما للباب العالى طلبت فيها الدول الاربع جعل امارة مصر لمحمد على باشا وسلالته من بعده . وقد قدمت هذه المذكرة في ٣١ يناير سنة ١٨٤١ وأخذت النمسا بعد تقديمها تجتهد فى استمالة فرنسا للاشتراك مع بقية الدول فى أمر تسوية المسئلة المصرية . فقبلت فرنسا ذلك ولـكنها اشترطت عدم التعرض لاتفاقية لوندره التى أبرمت بالرغم عن معارضتها وتم مفعولها

وقد أقرت فرنسا مع الدول فى لوندره على اتفاقية البوغازات التى تضمنت قفل بوغاز الدردنيل والبوسفور لكل سفن الدول الحربية بلا استثناء

وقبل أن تمضى الدول على هذه الاتفاقية أصدر الباب العالى — متبعا فى ذلك نصيحة السفير الانكليزى « بونسونبي » خطا شريفا أعلن فيه أن حكومة مصر تبقى وراثية لعائلة « محمد على باشا » ولكن الدولة تحتم انتخاب من تشاء من أعضاء العائلة لامارة مصر عند وفاة أميرها الحاكم والا تجند مصر أكثر من ثمانية عشر ألف عسكرى وان تؤخذ الضرائب بنفس الطريقة التى تؤخذ بها فى تركيا وأن يرسل للدولة منها الربع . فرفض عزيز مصر هذه القيود كما رفضتها فرنسا وعاد الهياج والاضطراب فى فرنسا الى ما كانت عليه . فاهتم « مترنيخ » وزير النمسا الاول بالامر وسعى فى عزل الصدر الاعظم « رشيد باشا » الذى كان يعمل بنصائح السفير الانكليزى فعزلته الدولة وعينت مكانه (رفعت باشا) وأصدرت ارادة جديدة بتعيين

(محمد على باشا) والياً على مصر وجعل امارة مصر لابنائه من بعده الارشد فالارشد . وبان يتفق بعد بين مصر والباب العالي على مبلغ ترسله مصر سنوياً للدولة العلية

فقبل المرحوم (محمد على باشا) هذه الشروط فى ١٠ مايو سنة ١٨٤١ ولم يعد لانكلترا وسفيرها بالاستانة حجة لخلق المشاكل ومد أجل الشقاق وبذلك أمضت الدول كلها فى لوندره بتاريخ ١٣ يوليو من السنة نفسها على اتفاقيتين الاولى معلنة قفل باب المسئلة المصرية (حين ذاك) والثانية متعلقة بقفل بوغازى الدردنيل والبوسفور أمام سفن الدول الحربية

وبذلك انتهت هذه الازمة المشئومة

*
* *

لاريب ان المرحوم (محمد على باشا) كان يعمل لتوسيع نطاق ملكه وكان مولعاً بأن يتولى امارة مصر والشام لتتم له الكلمة فى الشرق وفي البحر الابيض المتوسط . وكأنه رأى ماراه قبله نابليون من ان صاحب مصر لايهنأ له عيش

ولا تكمل له سعادة بغير الشام وكذلك صاحب الشام لا تؤيد امارته ولا تقوى سلطته الا باستلامه زمام أمور مصر فطمح لذلك مؤسس العائلة الخديوية لجعل الشام تحت حكمه وانتهز فرصة رفض والى (عكا) قبول طلبه بارجاع المصريين المهاجرين من مصر الى وطنهم لفتح الشام وتحقيق أمانيه . ومما سهل له ذلك علمه بارتباك أحوال الدولة عندئذ واشتغال المرحوم السلطان (محمود الثانى) بتنظيم جيش جديد

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان (محمد على باشا) كان يؤمل القبض على زمام الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية والجلوس على أريكة ملك آل عثمان . ولكنى لست ممن يرون هذا الرأى بل ولا ممن يظنونه ظناً . فان (محمد على باشا) الذى وهبه الله من الذكاء النادر والفكر الحاد والنظر الصائب والبصيرة الصادقة ماجعله فى نظر الكثيرين فوق « نابليون » رأيا وعملا أبعد من أن يؤمل مثل هذا الامل المستحيل وان ذلك الذى سخرت له الرجال وذللت أمامه صعاب الاعمال كان يعلم أكثر من كل انسان انزوال

المملكة العثمانية أمر لا يكون الا اذا زال هذا الوجود وان دولة الروسيا القوية العظيمة لم تستطع بلوغ هذه الغاية . فكيف به وما كان الا أمير مصر ؟

كلا . اني لست ممن يرون بأن مؤسس العائلة الخديوية الكريمة كان يؤمل أو يحلم ان يقبض على زمام الدولة العثمانية ولكنه كان يريد أن يحكم الشام مع مصر . وهاهى رسائله الى (لويس فيليب) ملك فرنسا مدونة فى المستندات الرسمية والتاريخية تثبت ان غاية أمانيه كانت الاستيلاء على الشام .

ولو كان يعلم عزيز مصر بالنتائج السيئة والعواقب الوخيمة التى تنشأ عن دخوله الشام ووقوع الخلاف بينه وبين الدولة العلية لكان ولا محالة عدل عن أمنيته وعمله . ولا جرم أنه (محمد على باشا) تندم طويلا على هذا الخلاف المشئوم وتحسر على مافرط منه

وقد يذهب الانسان عند مايقلب صحائف تاريخ هذه الازمة المشئومة الى ان هنالك أسراراً لم يكشفها لنا التاريخ دفعت بعزيز مصر ضد الدولة العلية . فان المرحوم (محمد على

باشا) كان يعلم علم اليقين ان انكلترا هى أول عدوة له ولمصر وانها لذلك تعاكسه بكل مافى وسعها . وكان لا يغيب عنه ان الروسيا لا يروق لها استيلاؤه على الشام وتأسيس دولة اسلامية جديدة يكون لها من القوة والحول ماتستطيع معه الدولة العلية يوماً من الايام ان تقهر الروسيا وتردها عن ديارها .

وعلى أى حال فهذه الازمة المشئومة يجب أن تكون درسا أبديا للعثمانيين والمصريين بل ولسائر المسلمين . فان هذا الخلاف القديم كان سببا لمصائب جمة تساقطت على مصر وعلى الدولة العلية . وفى أغلب الملمات التى نزلت بالدولة أو بمصر يرى الانسان أثراً من آثار ذلك الشقاق المنحوس

وقد يعمل بعض المفسدين على احياء الضغائن فى صدور رجال الدولة العلية بايهامهم ان مصر طامحة الآن وفى كل آن الى ماطمح اليه مؤسس العائلة الخديوية . وهى دسيسة لا يقصد بها الا الاضرار بمصالح الدولة وبمصالح مصر

فاذا كان الخلاف القديم قد جر على الدولة وعلى مصر

المصائب والبلايا فواجب على بنى الدولة وبنى مصر أن يعتبروا به وان يجعلوا الوفاق والاتفاق رائدهم في كل أعمالهم . فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة فؤادها ولا حياة لهذا الجسم العظيم الا بالاتفاق بين أعضائه فى العمل

واذا كانت دول أوروبا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عند مايهم المسيحية أمر فكيف لا نتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة في أشد البلاء والاخطار محدقة بها من كل جانب وأعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص .

لا سلامة للدولة العلية ولمصر الا بالوفاق والاتحاد وقد أدرك هذه الحقيقة المصريون عن بكرة أبيهم مقتدين بالعباس أميرهم المحبوب فتقربوا من الدولة العلية وجاهروا بمحبتها فى السراء والضراء واعترف العالم كله بأن أهل مصر أصدق المخلصين للدولة العلية وللعرش الشاهانى اذ ثبت ذلك بأجلى بيان فى الحرب الاخيرة . ولا ريب عندى ان أمة مصر العزيزة ثابتة في أميالها لا تتحول أبد الدهر عن اخلاصها

للدولة العلية حماها الله

وأنه ليجب على كل مصرى صادق وعلى كل عثمانى يخلص الحب لبلاده ان يحبط أعمال الذين يشون الدسائس بين مصر والدولة العلية ويلقون بذور الشقاق بين جلالة الخليفة الاعظم وسمو الخديوى الافخم فان أولئك العاملين على خلق الشحناء والبغضاء بين المتبوع والتابع لاشد خصوم الدولة وألدأعدائها

كتاب

من (محمد علي) أمير مصر

الى

(لويس فيليب) ملك فرنسا

نأتى هنا على ترجمة كتاب أرسله عزيز مصر الى ملك فرنسا بشأن حوادث الشام ومسئلة الخلاف بينه وبين الدولة العلية. وكنا قد نشرناه فى جريدة المؤيد الغراء عقب خطبة القيناها بالاسكندرية وأشرنا فيها اليه .

ومن هذا الكتاب يعرف القارىء حقيقة أفكار المرحوم (محمد على باشا) وأمياله وقت الازمة السالفة الذكر

القاهرة في ١٦ رمضان سنة ١٢٥٦ هجرية (نوفمبر سنة ١٨٤٠) أيها الملك العظيم

انى أشعر بالحاجة لاظهار شكرى لجلالتكم . ذلك الشكر الذى يجيش فى صدرى

فلقد ألقت نحوى حكومة جلالة الملك من أمد بعيد أنظار رعايتها واليوم تتوج جلالتكم مآثرها علىّ باعلانها للدول ان وجودى السياسى ضرورى للموازنة الاوروبية

وان هذه العواطف الجديدة من شأنها أن تحدد لي واجبات أعرف القيام بها . وأول هذه الواجبات هو أن أوضح لملك فرنسا بكل صراحة أسباب سلوكى الحالي واحداً بعد آخر

لقد كانت فى سائر الازمان سعادة الدولة العثمانية أصدق أمنية أتمناها من صميم فؤادى حيث أنا أود أن أراها دائما سعيدة قوية آمنة . وكانت قصارى آمالي ومرامى انظارى موجهة نحو مساعدتها على أعدائها أولا والمحافظة على كل ماملكته يدى بعد المجاهدات العظيمة فى سبيل الدفاع عنها ثانيا

أما الذى حببنى نحو فرنسا ـ وأقول ذلك بكل صراحة ـ وحملنى على اتباع نصائحها دائما فهو ماتبينته من انها أكثر الحكومات رغبة فى خير الدولة العثمانية بلا خديعة ولا

موار بة ولا شائبة قصـد سيء . وكـذلك أرجو ان تعتقد جـلالتـكم ان حبي لبـلادى هو الذى كان داعـا الدافع لي والقائد لزمامي

وعلى ذلك استطعت بعد المجاهدات العظيمة والاحوال المتناقضة تأييد الامن فى الشام فحل فيها اليوم السـلام محل الفوضى والاضطراب . واذا كنت قد أظهرت عظيم رغبتى فى بقاء هذه البلاد تحت حكومتى فذلك لانى معتقد بأنها اذا نزعت من يدى عادت اليها المصائب التى استأصلت جراثيمها منها . ومن جهة أخرى أرى ان الشام تصير اذا بقيت فى يدى عنصر قوة أستطيع به وقتئذ مساعدة مولاى السلطان ودولتى العلية مساعدة فعلية حقيقية ولـكنها لما كانت فى يد الدولة العلية — وذلك ماأتجاسر على القول به — كان الاضطراب والفوضى والحـروب الاهلية مستحكمة فيها . وهاقد تحققت اليوم شيئا ممـا كنت أخافه . فلقدساعدالنفوذ الاجنبي عناصر الشـقاق والاضطراب حيث لم يكن يفلح ل الامر مسعى الذين كانوا يهيجون الامة . ولـكن مساعى

أولئـك الذين كانوا يظنون أنهم يخدمون اسـتقلال تركيا باحداثهم الاضطراب فى احدى ولاياتها نجحت هذه المرة لافى اثارة خواطر البـلاد فقط بل وفى اقامة الامة ضـد بعضها فثارت بذلك الحروب الاهلية

وان دواعى المصلحة العـمومية التى كانت ترغبنى فى المحافظة على الشام وجعلها تحت حكومتى زالت اليوم بالمرة ولم تبق هنالك الا مصالحى الخصوصية ومصالح عائلتى وانى مستعد لحياطة هذه المصالح بكل مايصل اليه جهدى فى سبيل سلامة العالم . فاترك اذن الامر للحكمة العاليـة واضع بين يدى ملك فرنسا حظى فهو الذى يسوى كما تقتضيه رغبتـه الخلاف الحالى

واذا وافق ماأعرض على جلالتكم فانى أرضى من الشام بعكا لانها البلد التى قاومت بكل الوسائل مساعى التهييج التى عملت لاثارتها ضدى . وقد يجوز ان جلالتكم ترى من العدل ان تترك لى جزيرة (قنديه) التى صارت تحت سلطة حكومتى حسنة زاهية من عهد بعيد . ولـكن اذا أرشدتـكم

حكمة جلالتكم العالية الى ان زمن التساهل والتنازل قد فات وان المحافظة الشديدة واجبة فاني مستعد للكفاح الى آخر لحظة من حياتى أنا وسائر أولادى . وان جيشى فى الشام لايزال عظيما ودمشق وحلب وكل المدائن المهمةلاتزال تحت سلطتي وجيشى الذى فى الحجاز هاهو عائد نحو مصر وقد وصل قسم منه الى القاهرة ويصل القسم الآخر قريبا.وبين يدى شيوخ ذوو نفوذ هم نازعون الآن الى جبل لبنان متعهدين بأن يخضعوا لسلطتى الدروز والمارونيين . ولدى أربعون باخرة مستعدة للسفر لاول اشارة من جلالتكم

وعليه فأومل ان أسباب مسعاى لاتبقى مجهولة بعد اليوم حتى لايظن انسان ماأن الخوف صار قائدى الآن فان حياتى كلها براهين داحضة لمثل هذه الدعوى . ولو كان الخوف يقودنى لجاز أن أرى ضعيفا واهنا ولكنت تنازلت منذ ١٥ يوما حيث كان وجودى مهدداً بالاخطار . ولكن اليوم وقد أنقذ وجودى السياسى باعلان فرنسافانى لاأخاطر بشيء كبير ان طالت الحرب

كلا . وليست القوة التي يعدونها ضدي هي التي ترهبني بل ان الذى يرهبنى هو أن أكون سبباً لحرب عمومية وأن أجر فرنسا التي أنا مدين لها كثيرا الى حرب لا يكون لها داع غير فوائدى ومصالحى الشخصية

ولهذا فانى أعرض حقيقة الامر على أنظار جلالتكم واعترافى لكم بالجميل يجعل ذلك فرضا وواجبا علىّ . فضلا عن انى معجب وواثق بملك فرنسا ذاك الاعجاب وهذه الثقة اللتين تحمل العالم كله عليهما حكمة جلالتكم وذكاؤكم العالى . وانى بهما أضع حظى بين يديكم

ومهما كان قرار الملك فانى أقبله بشكر وامتنان مادامت جلالتكم مشتركة فى المعاهدة التى سيتفق عليها بين الدول العظيمة والتى تقرر حظى ومستقبلي

وأخيراً مهما وقع ومهما كان الامر فاني أرجو الملك أن يسمح لي بأن أقول له « ان اعترافى بالجميل نحوه ونحو فرنسا سيبقى فى قلبي الى الابد واني أتركه ارثا لابنائى وأبناء أبنائي من بعدى كواجب مقدس »

ولقد كنت أود أ كلف أحـد ضباطى العظام المعول عليهم بحمل هـذا الـكتاب الى أعتاب جلالتـكم . ولكن الصعوبة وطول القورنتينه حملتاني على تكليف الـكونته « والوسكى » بتوصيله الى جلالتكم اهـ

(محمد على)

الازمة الثالثة

(حرب القرم)

تبين للقارىء من الفصل السابق ان انكلترا حلت محل الروسيا فى النفوذ لدى الباب العالى وصارت وحدها المسموعة الكلمة فى الازمة الاخيرة عند رجال الدولة وانها توصلت الى ابطال معاهدة (خونكار اسكله سى) التى خولت للروسيا حق ارسال جيوشها الى قلب الدولة العلية عند الحاجة فاستاءت الروسيا لذلك وعقدت النية على الانتقام من الدولة العلية التى أخلت انكلترا محلها وقد كان المرحوم السلطان الغازى (عبد المجيد خان) عاملا على اصلاح أحوال الدولة وتنظيم ادارتها فأصدر فرمان الكلخانة الشهير الذى اشتمل على اصلاحات عديدة كانت تكفى لتقويم أحوال الدولة وتقويتها فى ظرف قليل من السنين . فساء ذلك القيصر (نيقولا الاول) لان سياسته كانت تقتضى تقهقر الدولة على الدوام وعدم تمكنها من اصلاح شؤونها وتقويم المعوج فى

أحوالها . ولذلك أوعز الى المسيحيين الارثوذكس فى الدولة بمعارضة « التنظيمات » والعمل على ايقاف تنفيذها . وبالرغم عما بذله الارثوذكس من معارضة التنظيمات الجديدة فان الحكومة العثمانية التى كان على رأسها وقتئذ (رشيد باشا) ابتدأت فى تنفيذها واستبشر كل العثمانيين بقرب فلاحها تمام الفلاح ونيل ثمارها . الا ان ذلك كان من شأنه ازدياد حقد القيصر (نيقولا الاول) على الدولةالعلية . فأمر باجراء التجهيزات الحربية اللازمة واستعد لمحاربة الدولة مؤملا اضعافها وايقافها فى طريق الاصلاح

ولايجاد المشاكل بين الروسيا والدولة العلية أوعز القيصر (نيقولا الاول) الى القس « دانيلو » الذى كان حاكما على الجبل الاسود وتابعاً للدولة العلية بان يرفع راية العصيان فى وجه الدولة ودعاه قبل ذلك للسفر الى سان بطرسبورغ فسافر اليها وقوبل فيها باحتفاء عظيم وأهداه القيصر المال والنياشين وحرضه ضد الدولة بكل أنواع التحريضات حتى عاد الى الجبل الاسود ونادى أهله باسم

الصليب والدين الارثوذكسى للقيام فى وجه الدولة فلبوا نداءه وثاروا أجمعين

فلما علمت الحكومة العثمانية بذلك سيرت جيشاً عظيما بقيادة عمر باشا (وهو قائد عثمانى جليل اشتهر بقهر بلاد البوسنه) لقمع ثورة أهل الجبل الاسود. فسار الجيش ووقعت بينه وبين الثوار مواقع دموية فى جبال هذه البلاد حتى قهر الثوار وتم له الظفر والنصر. وقد كان لهذه الحادثة تأثير شديد فى أوروبا فاهتمت كل الدول بالامر وعلى الخصوص النمسا فانه كان يهمها عدم اضطراب الاحوال فى البلقان ولكنها كانت مدينة للروسيا بمساعدتها فى عام ١٨٤٩ فى قمع الثورة المجرية فاضطرت للتظاهر بمساعدة أهل الجبل الاسود لدى الباب العالى وكان غرضها الحقيق توطيد السكينة والسلام فى البلقان واحباط مساعى الروسيا. فسألت الباب العالى فى آخر عام ١٨٥٢ ان يعتدل فى انتقامه من أهالى الجبل الاسود حتى لاتجد الروسيا حجة لخلق مشاكل جديدة

وفى هذه السنة نفسها حدث خلاف عظيم بين الروسيا وفرنسا بشأن الاماكن المقدسة فى الشام وذلك ان لفرنسا بمقتضى معاهدات قديمة وحقوق ثابتة حماية معنوية على الكاثوليكيين فى الشرق . وقد توصلت بهذه الحماية الى جعل مفاتيح كنائس (أورشليم) بأيدى الكاثوليكيين . فأرادت الروسيا أن ترفع كلمة الدين الارثوذكسى بتسليم مفاتيح الكنائس بأورشليم الى القسس الارثوذكس ليزداد نفوذها فى الشرق مما يخالف مصلحة فرنسا فى الشرق وشرفها كل المخالفة فلذلك احتجت الحكومة الفرنساوية على رغبة الروسيا وطلبت من الباب العالى ان يفصل فى هذا الخلاف بمقتضى الحقوق والمعاهدات فعين الباب العالى لجنة للتحقيق. وبعد بحث طويل أقرت اللجنة على ان للكاثوليكيين وحدهم الحق فى امتلاك الكنائس بأورشليم . وبناء على هذا القرار أصدر الباب العالى فرمانا بذلك بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٥٢ فاستاءت الروسيا من هذا الفرمان غاية الاستياء وألحت على الحكومة العثمانية بابطاله مدعية ان معاهدتى « قينارجه »

و « ادرنه » تخولان لها هذا الحق ولكن الباب العالى أبقى فرمان ٩ فبراير بالرغم عن الحاح الروسيا ومعارضتها

وفى آخر عام ١٨٥٢ تعين لويس نابليون (نابليون الثالث) امبراطورا على فرنسا فعمل علي رفع شأن بلاده فى الشرق وسر لهذا الخلاف الناشىء بين دولته وبين الروسيا ليدافع فيه عن مصالح الكاثوليكية ويستميل بذلك رجال الدين اليه

وقد خافت النمسا وقتئذ ان يتسع الخرق على الراتق وتشتعل نيران الاضطرابات في البلقان ونيران الحرب بين الروسيا والدولة العلية فبذلت جهدها فى تسوية مسئلة الجبل الاسود وأرسلت في يناير عام ١٨٥٣ الى الاستانة الكونت دى (لينجن) يرجو الباب العالى باسم النمسا توطيد السكينة فى هذه الجهات المضطربة والعفو عن ثوار الجبل الاسود ومكافأة المسيحيين الذين لم يثوروا ولحقهم الضرر فى هذه الاضطرابات فأجاب الباب العالى رجاء النمسا وتأيدت السكينة والطمأنينة فى الربوع المضطربة .

أما مايختص بمسئلة الاماكن المقدسة فقدأرادت فرنسا ان تتساهل مع الروسيا خصوصاً وانها بلغت مرامها واكتسب (نابليون الثالث) ميل الكاثوليكين اليه فسألت الباب العالى ان يمنح القسوس الارثوذكس بعض امتيازات فى كنائس أورشليم وخابرت الحكومة الروسية فى أمر عقد لجنة بسان بطرسبورغ من مندوبي الحكومتين للنظر في مسئلة الاماكن المقدسة فقبلت الروسيا وكان يخيل وقتئذ للعالم كله ان الخلاف بين الروسيا وفرنسا أوشك أن ينتهى بسلام

*
* *

غير ان القيصر « نيقولا الاول » أمر فى الوقت نفسه البرنس منشيكوف بالسفر الى الاستانة ليخلق سببا لاعلان الحرب على الدولة العلية . وكانت مأموريته ظاهرها انه مكلف بتسوية مسئلتى الجبل الاسود والاماكن المقدسة مع الباب العالى . وقد سافر (منشيكوف) من سان بطرسبورغ فى ١٠ فبراير سنة ١٨٥٣ مصحوبا بضباط عديديين خلافا للعادة الجارية عند سفر أحد السياسيين الى احدى العواصم لمخابرة

حكومتها فى أمر . وجمعت الروسيا على نهر (بروث) جيشا مكونا من خمسين ألف عسكري وبدت جليا لكل أوربا رغبة الروسيا فى الحرب بل عزمها على اعلانها

وكان يظن القيصر « نيقولا الاول » ان البروسيا والنمسا تساعدانه ضد الدولة العلية وان انكلترا لا تعارضه في شيء وكان لا يخاف مساعدة فرنسا لتركيا ولا يظن ان انكلترا وفرنسا تتحدان مع تركيا ضده . وكان سفيره بلوندره يمثل له الحكومة الانكليزية مياله للسلم والرأى العام الانكليزى مضادا للحرب والعلائق بين انكلترا وفرنسا غير متينة لا يخشى معها من عقد اتفاق بين هاتين الدولتين . كل ذلك حمل القيصر (نيقولا الاول) على الاستعداد للحرب وعدم المبالاة بنتائجها

وقد سعى القيصر طويلا فى الاتفاق مع انكلترا على تقسيم الدولة العلية بين دولته وبينها فتحادث فى هذا الصدد كثيراً مع السير (هاميلتون سيمور) سفير انكلترا بسان بطرسبورغ ولكنه لم يفلح لان انكلترا كانت تعلم أن بقية

الدول الاوروبية لا ترضى بأمر خطير كهذا وان تقسيم الدولة العلية ليس بالامر السهل وعلى فرض وقوعه فانه يجر أكبر المصائب على العالمين فضلا عن أن هـذا التقسيم لا يفيد فى الحقيقة غير الروسيا

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٥٣ وصل البرنس (منشيكوف) الى الاستانة بين رجاله وضباطـه وفي أبهة أراد بها التأثير على أفـكار رجال الباب العـالى . وصار في كل أفعاله يعمل على خلق سبب لاعلان الروسـيا الحرب على الدولة العلية فطلب أولا عزل (فؤاد باشا) ناظر الخارجية العثمانية الذى كان عدوا للروسيا لتسهل له المخابرات . ثم عرض على الباب العالى مشروع عقد تحالف دائم بين الروسيا والدولة العليـة تعـترف فيه الدولة بحماية القيصر على الـكنيسة اليونانية . فاندهش رجال الدولة من هذا المشروع الغريب وأدركوا ان الروسيا تريد اعلان الحرب لانها تعلم جيدا أنه يستحيل علي الدولة قبول هذا المشروع فان لرؤساء الـكنيسة اليونانية سلطة دنيوية علي نحو الخمسـة عشر مليونا من المسيحيين وما

حماية الروسيا على الكنيسة اليونانية الا حمايه حقيقية على هؤلاء المسيحيين .

وقد أبلغت الدولة العلية سراً وكلاء الدول الاوروبية طلب الروسيا هذا ووصل عندئذ للاستانة سفيرا فرنسا وانكلترا بها وكلفا من قبل حكومتيهما بالعمل بالاتفاق . وبما ان البرنس (منشيكوف) كان لا يزال يجاهر بان مأموريته تنحصر فى حل مسئلتى الجبل الاسود والاماكن المقدسة اتفق السفيران على تعجيل حل هاتين المسئلتين حتى يضطر « منشيكوف » الى مبارحة الاستانة واعلان انتهاء مأموريته أو التصريح بنوايا القيصر الحقيقية . وسبق اننا ذكرنا ان مسئلة الجبل الاسود انتهت بتوسط النمسا لدى الباب العالى. أما مسألة الاماكن المقدسة فقد رضيت فرنسا بتسويتها بما فيه ترضية للقيصر وتمت هذه التسوية فى ٤ مايو سنة ١٨٥٣ ولم يبق هنالك سبب ظاهرى لبقاء « منشيكوف » بالاستانة. الا ان القيصر بقى على نيته الاولى وكان لا يزال يظن ان انكلترا لا تساعد الدولة ضده فقدم « منشيكوف » فى ٥ مايو

سنة ١٨٥٣ للباب العالى انذاراً شديد العبارة طلب فيه أن يجيبه فى ظرف خمسة أيام على طلبه بشأن عقد اتفاقية بين الدولتين يضمن فيها الباب العالى للكنيسة اليونانية حريتها الدينية وامتيازاتها الدنيوية ويجعل للروسيا عليها حماية حقيقية وأعلن « منشيكوف » الباب العالى فى انذاره بانه ان لم يقبل مطالب الروسيا قامت الحرب بين الدولتين . فأجاب الباب العالى بان الكنيسة اليونانية متمتعة بتمام حريتها وبانه مستعد مع ذلك لان يؤكد امام العالم كله لسائر رعاياه المسيحيين ضماناته لحريتهم الدينية وبانه يرفض رفضاً باتاً جعل الكنيسة اليونانية تحت حماية الروسيا مبيناً للبرنس (منشيكوف) أنه لا يستطيع قبول هذا الطلب بدون تعريض استقلال الدولة للخطر ووضع ادارتها الداخلية تحت مراقبة أجنبية (أى تحت مراقبة الروسيا)

وفى ذلك الحين عين (رشيد باشا) صدراً أعظم ووزيراً لخارجية الدولة وكان معروفا بكراهته الشديدة للروسيا فتظاهر (منشيكوف) ببعض اعتدال في خطته وسأل الباب

العالى ان يرسل رسالة للحكومة الروسية يصرح لها فيها بقبول مطالبها وبذلك لاتطلب منه الروسيا عقد اتفاقية بهذه المطالب . فأجاب (رشيد باشا) على هذا السؤال الجديد بالرفض وكان ذلك في ٢٠ مايو سنة ١٨٥٣ . فانقطعت المخابرات وعاد (منشيكوف) الى سان بطرسبورغ . وفى ٣١ مايو من السنة نفسها أرسل (نسلرود) وزير الروسيا الاول انذاراً جديداً للباب العالى بمعنى انذار «منشيكوف» وأعلن فيه بان الروسيا تحتل مقاطعتى الافلاق والبغدان اذا رفض الباب العالى قبول مطالبها . وقد كان ورفض الباب العالى رفضاً جديداً قبول هذه المطالب فأرسل (نسلرود) فى ١١ يونيو سنة ١٨٥٣ الى وكلاء الروسيا لدى الدول الاجنبية منشوراً بين لهم فيه الاسباب التى حملت الروسيا على الشروع فى احتلال الافلاق والبغدان أى على اعلانها الحرب على الدولة العلية

*
* *

ما انتشر خبر تهديد الروسيا للدولة باحتلال مقاطعتى

الافلاق والبغدان حتى هاج الرأى العام في انكلترا وفرنسا واندهش ساسة الحكومتين من جراءة الروسيا الغريبة واقدامها على هذا العمل الخطير النتائج . فاتفقتا على مساعدة الدولة العلية ضدها وأرسلتا اسطوليهما الى فرضة « بزيكا » أى الى مدخل الدردانيل ليسهل لهما ان تساعدا الحكومة العثمانية مساعدة فعلية عند مسيس الحاجة

واظهارا لما جبلت عليه العائلة السلطانية المعظمة من محبة رعاياها على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وحسن رعايتها لهم على السواء أصدر الباب العالى خطا شريفاً بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٥٣ منح فيه سائر المسيحيين فى الدولة العلية الحرية الدينية التامة أى أكد لهم استمرار الحكومة العثمانية على احترام هذه الحرية التى تمتعوا بها دائما هم وأسلافهم من قبل. وعرضت فرنسا من جهة أخرى على الدول الاوروبية مشروع عقد مؤتمر لازالة الخلاف بين الروسيا والدولة العلية . فبرهنت بذلك الدولة العلية ونصيرتها الاولى فرنسا على اعتدالهما وميلهما للسلم وتركتا مسئولية الحرب وسفك الدماء

على الحكومة الروسية التى بقيت على عنادها ولم ترجع عن قصدها

وعند ماعلم القيصر (نيقولا الاول) بارسال الاساطيل الفرنساوية والانكليزية الى الدردانيل غضب غاية الغضب وزاد غضبه رفض الباب العالى للانذار الذى أرسله اليه المسيو (دى نسلرود) وزير الروسيا الاول فأصدر الى الشعب الروسى بتاريخ ٢٥ يونيو من السنة نفسها منشورا بين له فيه انه أشهر على تركيا حربا يجب عليه اعتبارها حرباً صليبية وجهاداً فى سبيل الارثوذكسية . وبعث كذلك (دى نسلرود) بمذكرة الى الدول الاوروبية أظهر لها فيها ان الدولة العلية وانكلترا وفرنسا جبرت الروسيا على الحرب بأعمالها العدائية ضدها . كأن وزير القيصر أراد أن يغالط أوروبا بهذه المذكرة أو كانه نسى ان دولته هددت تركيا باحتلال مقاطعتى الافلاق والبغدان وان فرنسا وانكلترا ماأرسلتا بأسطوليهما الى مياه الدردانيل الا عند توقع اشتعال نيران الحرب

وقد هاجمت الجيوش الروسية في ٤ يوليو سنة ١٨٥٣

مقاطعتى الافلاق والبغدان واحتلتهما بعد أيام قليلة فاستولى بذلك القلق على أفكار سواس الدول الاوروبية وعلى الخصوص دولة النمسا التي كان موقفها حرجا للغاية فانها كانت لا ترضى معارضة الروسيا لما لهذه الدولة عليها من الايادى البيضاء فى قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ ولانها الدولة الوحيدة التي تستطيع مساعدتها ضد الثورات فضلا عن ان الروسيا كان فى قدرتها أن تهيج العنصر السلافى فى بلاد النمسا ضد الحكومة النمساوية . وكان من جهة أخرى اعتداء الروسيا على الدولة العلية مخالفا لمصلحة النمسا كل المخالفة وكان سواسها يعلمون علم اليقين انها لو ساعدت الروسيا استطاعت فرنسا وانكلترا ان تهيج ضدها ايطاليا والمجر وبولونيا . فلذلك بقيت النمسا حائرة فى أمرها مضطربة فى سياستها وغاية ما أقر عليه سواسها انهم سألوا الباب العالى الا يجعل جوابه على احتلال الروسيا لمقاطعتى الافلاق والبغدان اعلان الحرب عليها بل مجرد احتجاج على هذا الاحتلال حتى يسهل للنمسا مخابرة الدول فى حل المسئلة حلا سلمياً . فقبل الباب العالى سؤال النمسا

وبرهن بذلك للعالم كله على عظيم اعتداله وسلامة أمياله مما شجع النمسا على دعوة الدول لعقد مؤتمر بفيينا . وقدأجابت الدول دعوة النمسا واجتمع مندوبوها بفيينا فى ٢٤ يوليو سنة ١٨٥٣ ولم تقبل الروسيا الاشتراك فى هذا المؤتمر بل اكتفت بأن وعدت الدول بقبول ماتقرره فيه ان وافق مصلحتها .

وقد أقر هذا المؤتمر على قرار مبهم العبارة والمعنى كان يسهل لسواس الروسيا أن يفسروه حسب أهوائهم وأغراضهم فرفضته الدولة العلية منعا للمشاكل . فلما رأت فرنسا وانكلترا ان الاتفاق مستحيل وان الروسيا عاملة على منعه وايقاد نيران الحرب أمرتا أسطوليهما بعبور الدردانيل والوقوف أمام الاستانة . وكان ذلك بناء على طلب الباب العالى ورغبته وفى آخر سبتمبر سنة ١٨٥٣

وفى هذه الاثناء تقابل القيصر (نيقولا الاول) في مدينة (اولموتز) مع الامبراطور (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا وطلب منه الاتحاد معه ضد تركيا وفرنسا

وانكلترا فاعتذر امبراطور النمسا عن قبول هذا الطلب مظهرا للقيصر أسفه من عدم امكانه مساعدته . فلما لم يجد من امبراطور النمسا اقبالا على مساعدته طلب من ملك بروسيا مقابلته وقابله وعرض عليه كذلك الاتحاد معه ولكن نتيجة مسعاه عند ملك بروسيا كانت كنتيجة مسعاه عند امبراطور النمسا

أما الدولة العلية فقد اهتمت باتمام تجهيزاتها الحربية ولم تغفل شيئا من لوازم الحرب . وكان الرأى العام العثمانى متهيجا جدا ضد الروسيا والمسلمون فى حالة قلق وهياج عظيمين خصوصا وان منشور القيصر لشعبه أبان لهم ان الحرب دينية صليبية فاجتمعوا مئات وألوفا امام سراى السلطان وطلبوا بأعلى أصواتهم اعلان الحرب فلبت الدولة طلبهم وبعد جلسة عقدت من وزراء الدولة وكبرائها تحت رئاسة المرحوم السلطان الغازى (عبد المجيد خان) وأعلنت الدولة الحرب على الروسيا بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٥٣ . وفى ٨ منه أنذر (عمر باشا) قائد الجيوش العثمانية البرنس (غورتشاكوف) قائد الجيوش

الروسية بانجلاء العساكر الروسية من مقاطعة الافلاق والبغدان وحدد له خمسة عشر يوما أجلا للجلاء تبتدىء الحرب بعدها اذا لم ينفذ البرنس (غورتشاكوف) طلب (عمر باشا)

وقد كان القيصر « نيقولا الاول » مؤملا قهر تركيا ليس فقط بقوة جيوشه الجرارة بل بفضل الاضطرابات والثورات التى كان يعمل عماله وصنائعه لاحداثها فى الدولة العلية. فان جملة من مهيجى اليونان قاموا فى مقاطعة تساليا وابيرا اللتين كانتا تحت حكم الدولة بتحريض الاهالى على العصيان فى وجه الحكومة العثمانية. وساعدت الحكومة اليونانية وقتئذ هؤلاء المهيجين وسمحت لعدد عديد من ضباطها وجنودها بالسفر سراً الى تساليا وابيرا لنشر لواء الثورة بالفعل. وكان القيصر يحرض من جهة أخرى شاه العجم على محاربة الدولة العلية

ولما كان أمل القيصر وطيدا فى نجاح ثوار اليونان والوصول الى احداث الاضطرابات فى الدولة من كل جانب

أظهر لدول أوروبا ميله للسلم ورغبته فى تسوية المسئلة تسوية سلمية . وكان قصده بذلك اغفال الدولة العلية عن اتمام تجهيزاتها الحربية واضعافها بالاضطرابات والثورات . وقد اغترت النمسا بتصريحات القيصر وحسبتها صادرة عن اخلاص فجمعت سفراء الدول بفيينا ثانية فى مؤتمر .وقررت معهم فى ٥ دسمبر سنة ١٨٥٣ أمرين الاول المحافظة على استقلال الدولة العلية والثانى استقلال الحكومة العثمانية تمام الاستقلال فى ادارتها وأعمالها الداخلية . وأرسلت النمسا مع هذا القرار مذكرة للباب العالى سألته فيها أن يخبر الدول فى أقرب وقت على أى شروط يقبل المخابرة مع الروسيا فى أمر الصلح

ولكن جيوش الدولة كانت قد سارت تحت قيادة (عمر باشا) وهزمت الجنود الروسية هزيمة عظيمة اهتزت لها أوروبا كلها وانتهت باسترجاع الدولة لمقاطعة الافلاق الصغرى وبابعاد الجيوش الروسية من صربيا التى كان يجتهد الروسيون فى تهييجها ضد الدولة . وفى آسيا أتى الجيش العثمانى

بقيادة (عبده باشا) ماأتاه مثيله بقيادة (عمر باشا) حيث دخل الاراضى الروسية وهزم جنودها واحتل قلعة (سانت نيقولا) . فازعجت القيصر هذه الانتصارات الباهرة وانتقاما من تركيا أمر أسطوله بالبحر الاسود أن يدمر أسطولها ففاجأه في ميناء (سينوب) وأرسل عليه نيرانه حتى دمره بعد مجهودات عظيمة

فلما وصل خبر واقعة (سينوب) الى المرحوم السلطان (عبد المجيد خان) أرسل الى دولتى فرنسا وانكلترا يسألهما ارسال أساطيلهما الى البحر الاسود لحماية الموانى العثمانية . فأجابت الحكومة الفرنساوية الطلب بدون امهال بخلاف الحكومة الانكليزية فانها تأخرت لعدم ميل (أبردين) رئيس الوزارة الانكليزية الى الحرب وأمله فى حل المسئلة حلا سلميا . غير ان الرأى العام الانكليزى كان ميالا الى الحرب متهيجا ضد الروسيا وكان (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا من أكبر أنصار الحرب فقدم استعفاءه فى ١٥ دسمبر عام ١٨٥٣ عند مارأى تأخر (أبردين) فى ارسال الاساطيل

الانكليزية الى البحر الاسود . فازداد تهيج الرأي العام الانكليزي واضطر (أبردين) الى دعوة بالمرستون لسحب استعفائه والعودة للوزارة تاركا له قيادة السياسة الانكليزية كما يرى ويشاء فأرسل (بالمرستون) الاساطيل الانكليزية الى البحر الاسود حسب طلب الدولة العلية . وفى ٢٧ دسمبر أرسلت فرنسا وانكلترا مذكرة مشتركة للروسيا أعلنتاها فيها بوجوب سحب مراكبها وسفنها من البحر الاسود وبان أساطيلهما داخلة الى هذا البحر وبانهما تسمحان للدولة العلية بترك مراكبها وسفنها فيه . فكان الاعلان في الحقيقة اعلانا للحرب من فرنسا وانكلترا على الروسيا . ولم ترض حكومتا الدولتين التصريح به علنا لاشتغالهما بأمر اتمام التجهيزات الحربية

كل هذه الحوادث كان من شأنها ازدياد حيرة النمسا فعادت هذه الدولة مرة ثالثة الى مخابرة الدولة العلية وبقية الدول في أمر منع الحرب فطلبت من الدولة ايضاح الشروط التى تطلبها لعقد الصلح فأجابتها الدولة بان شروطها أربع : أولا اعلان استقلال بلادها وأراضيها وضمانة دول فرنسا

وانكلترا والنمسا والبروسيا لهذا الاستقلال . ثانيا انجلاء العساكر الروسية من مقاطعتي الافلاق والبغدان . ثالثا تجديد الضمانات المقدمة من أوروبا للدولة فى عام ١٨٤١ . رابعا احترام أوروبا كلها وفى مقدمتها الروسيا لاستقلال الحكومة العثمانية فى كل أعمالها داخلية كانت أو خارجية

فلما عرضت هذه الشروط على سفراء البروسيا والنمسا وفرنسا بفيينا قبلوها وصدقوا عليها وكلفوا حكومة النمسا فى ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ بتبليغها للروسيا . وبقيت الدول منتظرة جواب الروسيا على انذار فرنسا وانكلترا أولا وعلى مذكرة الدول الاربع ثانيا الا أن القيصر (نيقولا الاول) كان لا يزال مؤملا مساعدة البروسيا والنمسا فارسل الى برلين البارون (دى بودبرج) والى فيينا الكونت (أورلوف) ليسألا الحكومتين البروسية والنمساوية ان تبقيا على الحيادة أثناء الحرب ويعدهما القيصر مقابل ذلك بدعوتهما بعد للاشتراك معه فى حل المسئلة الشرقية . فطلبت النمسا من الكونت (أورلوف) الا تعبر الجنود الروسية نهر الدانوب

ووعدته بالبقاء على الحيادة اذا قبلت الروسيا هـذا الشرط ولـكن الروسيا وجدت قبوله يضر بها ضررا عظيما فى الحرب فرفضته وحملت بذلك النمسا على أن ترفض طلبها البقاء على الحيادة وان تحفظ لنفسها حرية تامة فى العمل

وقد رفضت البروسـيا أيضا طلب الروسيا بالرغم عن قرابة القيصر (نيقولا الاول) لملكها وتحقق القيصر عندئذ أنه لا نصير له بين دول أوروبا وانه سيحارب تركيا وحده . فرفض مذكرة الدول الاربع التى أرسلت اليه فى ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ وأجاب على كتاب ودى أرسله اليـه (نابليون الثالث) أمبراطور فرنسا نصحـه فيه بقبول مطالب الدول بان شرف الروسيا يحتم عليها الحرب . وبقى بذلك على عناده الاول غير حاسب لنتائج الحرب حسابا

فلما علمت الحكومة الفرنساوية والحـكومة الانكليزية بنوايا القيصر أرسلتا الى حكومته بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٤ انذارا هددتاها فيه بوجوب اخلاء مقاطعتى الافلاق والبغدان والا أعلنتا عليها الحرب واجتهدت فرنسا وانكلترا بعد ذلك

فى ضم النمسا والبروسيا اليهما ضد الروسيا . غير ان ملك بروسيا رفض الاشتراك فى الحرب ضد الروسيا وأبلغ حكومات فرنسا وانكلترا والنمسا بانه مستعد للاتفاق معها على بعض قواعد سياسية تكون فيما بعد أساساً لتسوية الخلاف بين الروسيا وتركيا . فقبلت الدول الثلاث ذلك واجتمع مندوبو البروسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا فى فيينا مرة رابعة وأمضوا على بروتوكول (مذكرة) ٩ ابريل سنة ١٨٥٤ المشتمل على القواعد الآتية : أولا استقلال الدولة العلية . ثانياً انجلاء العساكر الروسية من مقاطعتى الافلاق والبغدان . ثالثا استقلال الحكومة العثمانية فى أعمالها وترك الحرية التامة لها فى منح رعاياها المسيحيين الامتيازات اللازمة . رابعا الاتفاق على الضمانات اللازمة لتنظيم العلاقات السياسية للدولة العلية مما يضمن سلامة التوازن الاوروبى

وعند ماوصل انذار فرنسا وانكلترا السابق الذكر الى القيصر (نيقولا الاول) رفضه رفضا باتا وقبل اعلان الحرب

عليه من الدولتين . فعقدت فرنسا وانكلترا عندئذ فى ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ تحالفا مع الدولة العلية ضد الروسيا اشترط فيه بادىء بدء ان فرنسا ترسل خمسين ألف جندى الى تركيا وان انكلترا ترسل خمسة وعشرين ألفا ولكن الحرب اقتضت ارسال جنود كثيرة حتى ان فرنسا وحدها فقدت فى ساحة القتال فوق المائة ألف جندى واشترط فى هذا التحالف ان دولتى فرنسا وانكلترا تسحبان جنودهما فى مدة خمسة أسابيع بعد عقد الصلح مع الروسيا . واشترط كذلك ان دولتى فرنسا وانكلترا ترسلان أساطيلهما الى البحر الاسود. وبالفعل استولت فرنسا وانكلترا على البحر الاسود وأرسلتا جيوشهما الى الدانوب . ولقمع الثورة فى تساليا وبيرا أرسل جزء من هذه الجيوش الى هاتيك الجهات فقمعت الثورة فى زمن يسير وعادت السكينة بعد الاضطراب

*
* *

وبعدان اتفقت فرنسا مع انكلترا ضد الروسيا اجتهدت الحكومتان فى استمالة النمسا اليهما لان قوة الجيش الروسى

كانت على الدانوب وكان يسهل التغلب عليه وقهره اذا ساعدت النمسا دول تركيا وفرنسا وانكلترا غير ان النمسا كانت تأبي العمل ضد الروسيا قبل اتفاقها على ذلك مع البروسيا فخابرت هذه الدولة التي كان من صالحها خدمة الروسيا بدون أن يدرك ذلك أحد وطالت المخابرات بينهما وانتهت بعقد اتفاقية بين النمسا والروسيا بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٥٤ تضمنت ان النمسا ترسل لحكومة الروسيا انذارا بعدم تقدم جنودها وبانسحابها من مقاطعتي الافلاق والبغدان وان النمسا والبروسيا تعلنان الحرب على الروسيا اذا عبرت البلقان أو أعلنت استيلاءها على المقاطعتين

وقد وجهت البروسيا عنايتها بعد عقد هذه الاتفاقية الى ابطال مفعولها مع بقائها وأخرت ارسال النمسا للانذار المتفق عليه مؤملة استيلاء الجيوش الروسية فى هذه الاثناء على مدينة (سيليستريا) التى كانت محاصرة لها والتى لم تستطع الاستيلاء عليها . ولم ترسل النمسا انذارها للروسيا الا فى ٣ يونيه عام ١٨٥٤

ولما لم يستطع (غورتشاكوف) الاستيلاء على (سيليستريا) رفع عنها الحصار وسحب جيوشه عائدا الى الوراء وعندئذ اتفقت النمسا مع الباب العالى بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٥٤ على احتلالها لمقاطعتى الافلاق والبغدان وصد هجمات الروسيا عنهما ومساعدة عساكر فرنسا وانكلترا فى حركاتهما الحربية الا ان البروسيا كانت عاملة كما قدمنا على معاكسة النمسافى خطتها فأوعزت الى حكومات الاتحاد الجرمانى باشتراط جملة شروط للتصديق على الاتفاقية التى عقدت بين الروسيا والنمسا فى ٢٠ ابريل فعملت هذه الحكومات الصغيرة بايعاز البروسيا واشترطت عدة شروط منها اشتراكها فى المخابرات التى ستجرى بين الدول بشأن المسئلة الشرقية ومنها انه اذا كانت النمسا ستجبر الروسيا على اخلاء مقاطعتى الافلاق والبغدان يجب عليها كذلك ان توقف سير انكلترا وفرنسا وتجبرهما على الامضاء على هدنة. فاضطرت النمسا لقبول هذه الشروط ورضيت فرنسا وانكلترا بناء على رجائها بألا تسير جيوشهما من جهة

المقاطعتين . واتفقتا عنـدئذ على تجريدة (القرم) والهجوم على مدينة (سباستول)

وقد انقذت الروسـيا من اخطار هائلة وخسائر جمـة بتحول الجيوش الفـرنساوية والانكليزية بعـد التركية عن مقاطعتى الافلاق والبغـدان اتباعا لرجاء النمسا . والفضـل فى ذلك للبروسيا التى أوعزت لحـكومات الاتحاد الجرماني باشتراط هذا الشرط على حكومة النمسا

فلما تحققت الروسيا من ميل البروسيا وحكومات الاتحاد الجرمانى اليها أرسلت للنمسا بتاريخ ٢٩ يونيـه عام ١٨٥٤ جوابها على انذارها مبينـة انها لاتستطيع الرضاء باخـلاء المقاطعتين من جنودها الا اذا قدمت لها النمسا ضمانات كافية وأعلنت عـدم اتحادها مع فرنسا وانكلترا وتعهدت بمنعهما من محاربة الروسيافى الافلاق والبغدان . فرأت النمسا عندئذ ضرورة الاتفاق مع فرنسا وانكلترا على شروط جـديدة لتسوية الخلاف بين الروسيا وتركيا تكون بمثابة انذار جديد للروسيا . وجمعت بفيينا مندوبى فرنسا وانكلترا مع مندوبيها

لوضع هاته الشروط . فلما وصل هذا الخبر الى ملك البروسيا أوعز الى امبراطور الروسيا باعلان اخلاء المقاطعتين من الجنود الروسية مؤملا بذلك تعطيل أعمال مندوبى الدول الثلاث بفيينا . ولكنهم لبثوا مجتمعين بضعة أيام قرروا فيها (يوم ٨ أغسطس عام ١٨٥٤) ان العلاقات السياسية بين تركيا والروسيا لا تعود لمجراها الاول : أولا اذا بقيت حماية الروسيا على مقاطعات الافلاق والبغدان وصربيا واذا لم توضع الامتيازات التى منحها الباب العالى لهذه المقاطعات تحت ضمانة الدول كلها . ثانيا اذا بقيت الملاحة فى الدانوب غير حرة . ثالثا اذا لم تغير الدول معاهدة ١٣ يوليو عام ١٨٤١ رابعا اذا استمرت الروسيا مدعية ان لها حق حماية المسيحيين كلهم أو بعضهم فى الدولة العلية واذا لم تضمن أوروبا كلها استقلال الدولة العلية وسلامتها

وقرر مندوبو الدول بألا تحيد دولهم بعد عن هذا القرار والا يعقد الصلح الا بقبوله

وقد أرادت النمسا ان تصدق البروسيا وحكومات

الاتحاد الجرمانى على هـذا القرار ولـكنها لم تقبل منه الا الشرطـين الاولين ورفضت الآخرين وأعلنت النمسا انها لاتتحد معها الا اذا تعهدت بمنع الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية من الهجوم على المقاتلين أو محاربة الروسيا من هذه الجهة . فحارت النمسا فى أمرها لانه كان لا يمكنها قبول هذا الطلب بغير تكدير علائقها مع حكومات تركيا وفرنسا وانكلترا

وفى هذه الاثناء انتصرت الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية على الجيوش الروسية انتصارات باهرة فقهرتها على شواطىء نهر (ألما) واستولت على مواقع مختلفة وفى ٢٥ اكتوبر عام ١٨٥٤ هزمت الجيوش المتحدة جيوش القيصر فى (بلكلاوا) وفى ٥ نوفمبر هزمتها في (انكرمان) وكان حصار (سباستوبول) لا يزال مستمرا

وقد رأت فرنسا وانكلترا ان النمسا تماطلهما كثيراً فى أمر الاتفاق معهما اتفاقا نهائيا صريحا فافتكرتا فى طريقة تحملها على الاتفاق معهما وهى دعوة حكومة (البيمونتى) الى

الاشتراك معهما في الحرب ضد الروسيا . ويعلم كل مطلع على التاريخ أن النمسا كانت تبغض حكومة (البيمونتى) الايطالية أشد البغض لعملها على تحرير ايطاليا كلها من تحت نير النمسا . فلما علمت حكومة فيينا بأن (البيمونتى) على وشك الاتحاد مع فرنسا وانكلترا خافت من مساعدة هاتين الدولتين فيما بعد لهذه الحكومة الصغيرة وأبلغتهما انها مستعدة للاتفاق معهما وعقدت معهما بالفعل فى ٢ ديسمبر عام ١٨٥٤ اتفاقا تضمن ان النمسا تتبع قرار ٨ أغسطس الذى أقرت عليه الدول الثلاث وانها لا تتخابر بمفردها مع الروسيا وانها تدافع عن مقاطعات الافلاق والبغدان وصربيا ضد كل اعتداء وان فرنسا وانكلترا تتعهدان للنمسا بمساعدتها ماديا اذا قامت الحرب بينها وبين الروسيا . وانه اذا لم يتم الصلح قبل أول يناير عام ١٨٥٥ بالشروط التى قررتها الدول الثلاث فى ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ اجتمع مندوبوها وتداولوا فى الوسائل الفعالة التى توصلها الى مرامها

ويعلم القارىء مما سبق ان البروسيا كانت ميالة للروسيا

وعاملة على انفاذها فلما علمت باتفاق النمسا مع فرنسا وانكلترا ضد الروسيا سعت في تأخير تنفيذ هذا الاتفاق لتكتسب الروسيا زمنا تستطيع فيه تحسين أحوال جيشها وتقويته وليسهل للبروسيا حل الاتفاق بين النمسا وفرنسا وانكلترا أو على الاقل اضعافه فأشارت على الحكومة الروسية أن تعلن النمسا بقبولها لقرار ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ وتسألها عقد مؤتمر بفيينا للمناقشة فيه . فسرت النمسا بذلك وحسبت الروسيا صادقة فى بلاغها وطلبت من فرنسا وانكلترا ارسال مندوبين من قبلهما لحضور المؤتمر . فرضيت الدولتان بذلك ولكنهما طلبتا من النمسا ارسال مذكرة مشتركة للبرنس (غورتشاكوف) الذى كان عين سفيرا للروسيا بفيينا توضح فيها الدول الثلاث معنى قرار ٨ أغسطس السالف الذكر . فلم تجد النمسا مناصا من القبول وحررت المذكرة وأرسلتها فى ٢٨ دسمبر عام ١٨٥٤ مفسرة لمعنى قرار ٨ أغسطس . وبعد عشرة أيام من تاريخ ارسالها أجاب البرنس (غورتشاكوف) بمذكرة فسر فيها قرار ٨ أغسطس تفسيرا يناقض تفسير الدول الثلاث

أى تفسير الدول الواضعة للقرار واستمرت المناقشات طويلا قبل عقد المؤتمر نفسه

وقد أحس منـدوبو فرنسا وانكلترا أن النمسا تخدع دولتيهما وتعمل على عدم الوفاء بتعهداتها . فأبلغوا حكومتيهم بذلك وأشاروا عليهما بعـقد اتفاق بينهما وبين حكومـة « البيمونتى » انتقاماً من النمسا . وقـد كانت الامراض والحميات أضرت بالجيوش الفـرنساوية والانكليزية ضرراً بليغاً وشـدة البرد عطلت الاعمـال الحربية . فاتفقت فرنسا وانكلترا مع « فيكتور رامانويل » ملك البيمونتى على مساعدة حكومته لهما ضد الروسيا وارسال ثمـانية عشر الف مقاتل . وأمضى (كافور) الشهير وزير البيمونتى على هذه الاتفاقية فى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥ . وقد سر (كافور) بها سروراً عظيما لعلمه بأن اشـتراك البيمونتى مع فرنسا وانكلترا فى الحرب ضد الروسيا يجعل لبلاده شأناً يسمح له بعرض المسئلة الايطالية على الدول وقت المناقشة فى شروط الصلح بعد اتمام الحرب ولذلك يعتبر المؤرخون اتفاقية ٢٦ يناير عام ١٨٥٥ مصـدراً

لتكوين الوحدة الايطالية وأصلا لها . وما عقدت هذه الاتفاقية حتى سافرت الى تركيا الجنود البيمونتية تحت قيادة الجنرال (لامارمورا)

وفي هذا الوقت نفسه تقدم القائد العثمانى (عمر باشا) الى مدينة (ايباتوريا) — التى هى أيضا ثغر من ثغور بحيث جزيرة القرم — وانتصر على الجيوش الروسية فيها نصراً مبيناً فى ١٧ فبراير عام ١٨٥٥ وانضم بعد هذا النصر الى جيوش الدولة وجيوش فرنسا وانكلترا المحاصرة لمدينة (سباستوبول)

ولما رأت النمسا أن فرنسا وانكلترا أساءتا الظن بها ورضيتا بمساعدة البيمونتى اجتهدت في ارضائهما والاشتراك معهما فى العمل فعرضت على البروسيا وحكومات الاتحاد الجرمانى أمر استعدادها للحرب وعزمها على ارسال جنودها ضد الروسيا فرفضت طلبها بأشنع صورة ووجهت اليها الملام العنيف على اتباعها ارشادات فرنسا وانكلترا بدون مراعاة مصلحة البروسيا والحكومات الجرمانية . وكان الموغر

للصدور وقتئذ ضد النمسا المسيو « دى بسمارك » الطائر الصيت وكان عضواً بالمجلس المشترك لحكومات الاتحاد الجرمانى بفرانكفور ومسموع الكلمة عند حكومته «البروسيا» وقدأظهر بمهارتهالسياسيةالفائقة لحكومةالبروسيا وحكومات الاتحاد الجرمانى ان خير وسيلة لمساعدة الروسيا هى جمع العساكر البروسيانية والجرمانية على الحدود امام الحدود الفرنساوية لتخشى فرنسا شأنها ويرجع « نابليون الثالث » عما كان عزم عليه من ارسال جيش جرار الى النمسا مخترقا به البلاد الجرمانية لمحاربة الروسيا وجعلها بين نار جيوشه من جهة مقاطعتى الافلاق والبغدان وبين نار الجيوش المتحدة من جهة القرم. وقدأفلحت سياسة «بسمارك» وعدل (نابليون الثالث) عن مشروعه عند ماعلم بوقوف الجنود البروسيانية والجرمانية امام حدود فرنسا

وقد خطر على بال (نابليون الثالث) عندئذ أن يسافر بنفسه الى الشرق ويتولى القيادة العامة على جيوش تركيا وفرنسا وانكلترا ولكن انكلترا عارضته فى رغبته كما عارضه

الكثيرون من نصاحه ووزرائه

وفى ٢ مارس من السنة نفسها (١٨٥٥) توفى القيصر (نيقولا الاول) وتولى بعده القيصر (اسكندر الثانى) فأعلن لاوروبا رغبته فى السلم وميله الى عقد الصلح مما اطمأنت له خواطر الكثيرين من رجال السياسة وحمل فرنسا على طلب عقد مؤتمر دولي جديد بفيينا حيث قبل طلبها وعقد المؤتمر في ١٦ مارس

ولما عقد المؤتمر اتفق مندوبو النمسا وانكلترا وفرنسا وتركيا والروسيا على شرطى اعلان عدم حماية الروسيا لمقاطعتى الافلاق والبغدان وحرية الملاحة فى نهر الدانوب . أما ما يختص بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها فقد صرح مندوبو الروسيا بأن دولتهم تحترم استقلال تركيا ولكنها لا تقبل الاشتراك مع الدول فى أمر ضمانته وقد رفضت الروسيا كذلك الشرط الرابع وهو المتعلق بتحديد عدد سفنها فى البحر الاسود . فأوقفت بسبب ذلك جلسات المؤتمر فى ٢٧ مارس عام ١٨٥٥ . ولما أعيد عقد المؤتمر رفض (غورتشاكوف)

مرة جديدة تحديد عدد سفن الروسيا فى البحر الاسود وضمانتها مع الدول لاستقلال الدولة العلية وعرض على دول أوروبا قفل بوغازى الاستانة والدردانيل كما تعهدت به الدول فى معاهدة عام ١٨٤١ واعطاء الباب العالى حق فتحهما عند الحاجة لسفن الدول المتحالفة معه . فلم يحصل بذلك الاتفاق بين مندوبي الدول وأوقفت جلسات المؤتمر للمرة الثانية فى ٢٧ ابريل عام ١٨٥٥ . وفى أوائل يونيه أعيد عقد المؤتمر للمرة الثالثة ولكن مندوبى الدول تضاربت آراؤهم كما حصل في المرة الاولى والثانية ولم يجدوا سبيلا للاتفاق فأعلن قفل المؤتمر نهائيا بلا نتيجة تذكر

*
* *

وقد رأت فرنسا وانكلترا أنهما صارتا في أشد حاجة للاتفاق بعد خيبة المؤتمر الدولى فسافر الامبراطور (نابليون الثالث (الى لوندره لزيارة الملكة (فيكتوريا) حيث قوبل فيها بغاية الاجلال والاكرام . وبعد زمن قليل من زيارته ردت له الملكة زيارته بباريس . وبعدئذ اتفقت الحكومتان

الفرنساوية والانكليزية على اصدار أوامر جديدة لقواد جيوشهما ببلاد القرم أمرتاهم فيها بأن يحملوا الحملة الاخيرة على (سباستوبول) وعينت الحكومة الفرنساوية فى القرم الجنرال (بيليسييه) بدل (كانروبر) على قيادة الجيش الفرنساوى وأمرته بالزحف على قلاع ومعاقل العدو فاستولى بجيوشه فى ٧ يونيو عام ١٨٥٥ مع مساعدة جيوش الدولة العلية له على قلعة (ماملون فير) المعروفة بالقمة الخضراء. وهجم فى ١٨ يونيو على حصن (ملاكوف) فصدت الجيوش الروسية عنه جيش فرنسا. فاستاءت لذلك فرنسا وانكلترا وتركيا وجمعت قواها واتفق قواد هذه الجيوش المجتمعة (عمرباشا) و (بليسييه) و (سمبسون) و (لامارمورا) على عمل مشترك للاستيلاء على (سباستوبول) فهاجمت الجيوش المجتمعة فى ٨ سبتمبر عام ١٨٥٥ مدينة (سباستوبول) حيث احتل الجنرال الفرنساوى (ماك ماهون) قلعة (ملاكوف) بعدموت الكثيرين من جنود الدول المتحدة ومن جنود دولة الروسيا. وكان ذلك اليوم مشهوداً ومن أكبر أيام الحروب

وانتهى بسقوط (سباستوبول) فى أيدى الجيوش المتحدة .

وقد أحدث سقوط (سباستوبول) تأثيراً هائلا فى كل أوروبا وانتظر العالم كله ايقاف الحرب وعقد الصلح بين الروسيا ودول تركيا وفرنسا وانكلترا . ولكن الحرب بقيت مستمرة واحتلت الجيوش المتحدة جملة مواقع مهمة منها مدينة (قلبرون) ولولا اقبال الشتاء لاستمرت الحرب بلا انقطاع وفى أثناء الحرب استولت الاساطيل الفرنساوية والانكليزية علي ميناء (بتروباولوسك) واحتلت فى بحر البلطيق (بومارسند) وضربت (سفيابورج)

فلما رأت الروسيا أن لا استطاعة لها على استمرار الحرب بذلت جهدها فى استمالة فرنسا لها وحل عقدة الاتفاق بين هذه الدولة وبين انكلترا وأرسلت الى باريس جملة من عمالها وصنائعها ليستميلوا اليها رجال السياسة الفرنساويه والقابضين على أزمة الرأى العام من الكتاب والخطباء فأظهر الامبراطور (نابليون الثالث) استعداده لمساعدة الروسيا ولكنه وجدها ترفض مطالب الظافرين فاضطر الى الاستمرار على خطته

الاولى نحوها ولما كان من صالح انكلترا ان تضعف نفوذ الروسيا فى بحر البلطيق اتحدت هى وفرنسا اتحاداً دفاعيا مع حكومة السويد التى كانت ألد عدوة للروسيا وقتئذ وكانت تطمح لاسترجاع (فنلندا)

وجرى فى هذه الاثناء ان (فيكتور امانويل) ملك البيمونتى ذهب الى باريس برفقة وزيره الشهير (كافور) فانتهز الامبراطور (نابليون الثالث) هذه الفرصة للانتقام من النمسا التى خدعته وخدعت انكلترا فى حرب القرم فاستقبل ملك البيمونتى ووزيره أحسن استقبال ووعدهما بالمساعدة على تحرير ايطاليا وتكوين وحدتها فاضطربت الحكومة النمساوية وخافت شر العاقبة وأبلغت فى الحال حكومتى فرنسا وانكلترا أنها مستعدة لان ترسل معهما انذارا للروسيا تهددها فيه باعلان الحرب عليها اذا رفضت مطالب الدول الثلاث . وسألت الحكومة النمساوية فرنسا وانكلترا أن تمضيا معها على اتفاقية تضمن امام العالم استقلال الدولة العلية وسلامتها فقبلت فرنسا وانكلترا طلب النمسا واتفقت الدول الثلاث

على صورة الانذار وأرسلته بالفعل لقيصر الروسيا بتاريخ ١٦ دسمبر عام ١٨٥٥ وأعلنته بوجوب قبوله قبل تمام شهر أى قبل ١٧ يناير عام ١٨٥٦ . وهذا الانذار يشتمل على الشروط الآتية

أولا جعل المقاطعات الدانوبية تحت رعاية الدول العظمى وضمانتها ومنع الدولة العلية من ارسال جنودها اليها بدون تصريح الدول . وتعديل الحدود من جهة البسارابيا

ثانيا تقرير حرية الملاحة فى نهر الدانوب تحت ضمانة الدول

ثالثا جعل البحر الاسود حراً . ويعمل لذلك اتفاقية خصوصية بين الروسيا والباب العالى تضمنها الدول بعد . وقبول الدولة العلية فى المجتمع الاوروبي . وعرض كل خلاف يقع بينها وبين احدى الدول على بقية الدول وتقرير مبدأ قفل بوغازى الاستانة والدردانيل

رابعاً تأكيد حقوق المسيحيين فى تركيا بدون الحاق

ضرر باستقلال السلطان وسيادته العالية

خامسا جواز وضع شروط جديدة اذا اقتضت مصلحة أوروبا ذلك

فأجابت الروسيا على انذار دول فرنسا وانكلترا والنمسا فى ٥ يناير عام ١٨٥٦ بقبول الشروط الاربعة الاولى ورفض الشرط الخامس لابهامه ولكن البروسيا خافت اشتعال نيران حرب عمومية فى كل أوروبا تقوم معها الثورات والاضطرابات فنصحت الروسيا بقبول المطالب الخمسة والخروج من هذه الازمة الخطرة عليها وعلى مصالحها. فاتبعت الروسيا نصيحة البروسيا وأبلغت الدول رسميا في ١٦ يناير عام ١٨٥٦ قبولها لشروطها كلها

فاجتمع عندئذ المؤتمر الدولي بباريس فى ٢٥ فبراير عام ١٨٥٦ وعقدت جلساته تحت رئاسة الكونت (والوسكى) وزير خارجية فرنسا واشتركت الدولة العلية والروسيا فيه كما اشتركت حكومة البيمونتى التى أرسلت نائبا عنها الكونت (كافور) الشهير. وكان (عالى باشا) مندوبا عن الدولة

العلية فى هذا المؤتمر

وقد اتفق مندوبو الدول فى هـذا المؤتمر بغير صعوبة على الشروط التى عرضتها من قبـل فرنسا وانكلترا والنمسا والتى أتينا عليها ولم يختلفوا الا فى قبول طلب (نابليون الثالث) بشأن ضم الافلاق والبغدان الى امارة واحدة فقرروا النظر فى هذا الامر بعد انتهاء المؤتمر

ولم يمض على مؤتمر باريس عامان حتى قررت الدول فى باريس نفسها بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨ جعل هاتين المقاطعتين امارة واحدة تحت ضمانة الدول

وقد أمضت الدول الاوروبية على عهدة باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ وأعلن قفل المؤتمر فى ١٦ ابريل من السنة نفسها بعد ان تناقش أعضاؤه في جملة مسائل أهمها المسئلة الايطالية التى عرضها على المؤتمر الكونت (كافور) ووجه أنظار الدول اليها ولكن المؤتمر لم يقرر شيئاً فى هذه المسائل واكتفى بالاتفاق على بعض شروط خارجية عن عهدة باريس مختصة بالملاحة والتجارة

انتهت هـذه الحرب بنتائج مختلفة نأتي عليها واحـدة بعد أخرى

تبين للقارىء ان هذه الحرب أصلها مسئلة الاماكن المقدسة والخلاف بين الكاثوليكيين والارثوذكس . وطالما كانت تؤمل كل دولة من الدول الاستيلاء على الشام والقبض على زمام الكنائس ببيت المقـدس فجاء الخلاف بين فرنسا والروسـيا بشأنها دليلا على أن هذه الاماكن المقدسة يجب أن تبقى الى الابد فى أيدى الدولة الاسـلامية العظمى لانها الدولة الوحيدة التى تقدر أن تحفظ الموازنة بين كل الديانات فى بيت المقـدس وتعطى كل ذى حق حقه . وانه لو تركت الاماكن المقدسة لدول أوروبا لوقع بينها وبين بعضها شقاق عظيم وقامت حرب دموية لنزوع كل واحدة منها الى امتلاكها ورغبة كل دولة فى سبق غيرها الى الاستيلاء عليها .

فدفعا لهذا الخطر الجسيم يجب أن تبقى هذه الاماكن في أيدى الدولة العلية العادلة الامينـة . وقد أدرك سواس أوروبا ذلك وعلموا أن مسئلة الاماكن المقدسة هي من أهم

الاسباب التى تحتم ضرورة بقاء الدولة العلية

واذا كانت الدولة العلية قد اكتسبت من حرب القرم هذه النتيجة المهمة فانها لم تكسب غيرها شيئا ما فقد فقدت المال والرجال وأضاعت نفيس وقتها ولم تأخذمن بلادالروسيا بلدا واحدة بل انسلخت عنها في الحقيقة (الافلاق والبغدان) وقد خدعتها الدول بمنحها امتيازين أثبتت الحوادث بعد أنهما لا يفيدانها شيئا مذكورا . فقد تعهدت الدول كلها بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها وأرتنا الحوادث أن دول أوروبا نفسها سلخت من الدولة العلية جملة بلاد باسم هذا المبدأ نفسه مبدأ ضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها . واتفقت الدول كذلك على اعتبار الدولة العلية دولة أوروبية وقبولها في المجتمع الاوروبى . ولم تر الدولة لهذا الامتياز فائدة ما بل كانت نتيجته جر البلايا عليها بازدياد تداخل أوروبا فى شؤونها الداخلية

وقد خرجت الروسيا من هذه الحرب سليمة لم تخسر فيها غير المال والرجال شيئا . ومعاكسة الدول لها فى البحر

الاسود لم تكن الا معاكسة وقتية كما أظهرته جليا الحوادث بعد مؤتمر باريس

أما الدولة التى استفادت كثيرا من هذه الحرب فهى دولة البروسيا فانها استمالت اليها الروسيا بخطتها نحوها وأوجدت عندها كراهة شديدة للنمسا التى لم تساعدها ضد تركيا كما ساعدتها هى فى قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ وأحدثت البروسيا بين النمسا وبين حكومات الاتحاد الجرمانى شقاقا كبيرا . فحمل البروسيا كل ذلك على محاربة النمسا عام ١٨٦٦ هذه الحرب التى ساعدت الروسيا فيها البروسيا مساعدة معنوية وانتهت باستيلاء البروسيا على مقاطعتين من أملاك النمسا وقد تمت نتائج هذه الحرب بهزيمة فرنسا أمام البروسيا عام ١٨٧٠ وتكوين الوحدة الالمانية

ومن أهم نتائج حرب عام ١٨٦٦ على النمسا غير فقدها مقاطعتين مهمتين استقلال المجر منها استقلالا اداريا . وهى أيضا نتيجة من نتائج حرب القرم

وقد استفادت كذلك من حرب القرم حكومة البيمونتى

فانها أرسلت الى مؤتمر باريس كما قدمنا الكونت (كافور)
الشهير الذى استلفت أنظار مندوبى الدول الى حالة ايطاليا
ومظالم النمسا وحمل على الحكومة النمساوية حملة شديدة
كان لها رنة ودوى فى كل أصقاع العالم . ومن حسن حظ
البيمونتى ان (نابليون الثالث) كان مغرما بتحرير البلاد
النازعة للاستقلال وكان ميله لايطاليا أشد من ميله لسواها
خصوصا وان بغضه للنمسا كان عظيما بعدحرب القرم لتلاعب
هذه الدولة فى سياستها وعدم وفائها فى وعودها مع فرنسا
وانكلترا . ولم تمض الا سنون قلائل بعد حرب القرم حتى
نالت ايطاليا استقلالها وتكونت وحدتها . فكانت بذلك
حرب القرم سببا لسقوط مقاطعتين مهمتين من أملاك النمسا
فى قبضة البروسيا وسببا لاستقلال المجر استقلالا اداريا وسببا
لخروج ايطاليا من تحت نير النمسا واستقلالها وتكوين وحدتها
وبالجملة كانت حرب القرم سببا لضعف النمسا وتقويض
أركان مملكتها

وقد اكتسبت انكلترا وفرنسا من هذه الحرب ازدياد

نفوذهما في الاستانة فاستعملتاه فى سبيل مصالحهما . فان الهنود كادوا يطردون الانكليز من بلادهم فى ثورة سيباى الشهيرة عام ١٨٥٦ لولا تداخل المرحوم السلطان (عبدالمجيد خان) فانه أصدر منشورا — بناء على رجاء انكلترا — لمسلمى الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والطاعة لحكومة جلالة الملكة (فيكتوريا) . ومعلوم أن المسلمين فى الهند أقوياء ولهم شأن عظيم وكلمة نافذة وكلهم يحترمون خليفة الاسلام ويجلونه أعظم اجلال . فلما وصل اليهم منشور جلالته وضعوه على رؤوسهم وعملوا بما أمرهم به. فألقوا أسلحتهم وانتهت بذلك الثورة وتوطدت سلطة الانكليز فى الهند بعد اضمحلالها

وانه ليتبادر للذهن ان انكلترا شكرت الدولة العلية على عمل سلطانها الاعظم أو اعترفت لها بالجميل. نعم انها اعترفت لها بالجميل ولكن بمعاداتها والاعتداء على بلادها ! فانها سلطت فى عام ١٨٥٨ — أى بعد عامين من ثورة سيباى — احدى سفنها الحربية الضخمة على ثغر (جدة) فاستمرت تدمر فيه نحو عشرين ساعة أسيلت فيها دماء كثيرة وخربت منازل

وبيوت عامرة . وكان ذلك عقب فتنة صغيرة قام فيها بعض المسلمين على بعض المسيحيين وأصيب فيها قنصل فرنسا وقتلت زوجته . ولم يكن لعمل انكلترا معنى ولا ضرورة لان الدولة العلية كانت قد أرسلت مندوبا عاليا من لدنها لتحقيق الامر ومعاقبة المعتدين

أما فرنسا فقد استعملت نفوذها فى تركيا الذى ازداد بعد حرب القرم كما قدمنا لاعلاء كلمتها فى الشرق فأرسلت جيشا فرنساويا الى الشام عام ١٨٦٠ بحجة مساعدة الدولة العلية على قمع الفتنة التى أحدثها الخلاف والشحناء بين المارونية والدروز مع أن جيش الدولة كان كافيا لاعادة الامن والسكينة فى هذه الديار . ولم تخرج العساكر الفرنساوية من الشام الا فى ٥ يونيو عام ١٨٦١

هذه هى النتائج الخطيرة التى أنتجتها حرب القرم ومنها يعلم القارىء حظ كل دولة فى هذه الحرب وخطة الدول نحو الدولة العلية وكنه مقاصد كل واحدة منها وحقيقة أغراضها

الازمة الرابعة

الحرب بين تركيا والروسيا وما قبلها وما بعدها

« من عام ١٨٧٥ الى عام ١٨٧٨ »

أبنا فى ختام الفصل السابق أن نتيجة حرب القرم على النمسا كانت وخيمة حيث فقدت هذه الدولة بعدها مقاطعاتها الايطالية وأخذت البروسيا منها في حرب عام ١٨٦٦ مقاطعتين مهمتين ونالت المجر استقلالها النوعي أى ارتفعت سلطة النمسا عنها . فطمعت هذه الدولة فى أخذ شيء من أملاك الدولة العلية يعوض عليها بعض خسائرها فتقربت من المانيا عدوتها اللدودة التى قهرتها وكونت وحدتها بانتصارها عليها وعلى فرنسا عوضا عن أن تستعد للأخذ بالثار منها واسترجاع المقاطعتين التين أخذتهما منها . وصارت كذلك النمسا تستميل الروسيا اليها وتوعز لها بمحاربة تركيا

وأوضحنا كذلك أن العلائق بين الروسيا والبروسيا صارت جيدة متينة وان مساعدة البروسيا للروسيا فى حرب القرم

حملت الروسيا على ترك البروسيا تحارب النمسا وتقهرها وتحارب فرنسا وتقهرها وتأخذ من كل دولة من الدولتين مقاطعتين عظيمتين وتكون بذلك وحدتها ويصير ملكها امبراطوراً لالمانيا بدون أن تعارضها فى أعمالها بل بقيت على الحيادة مظهرة ارتياحها لنجاح البروسيا ضد النمسا وفرنسا اللتين عاكستاها (أى الروسيا) فى حرب القرم

ومن ذلك يرى القارىء ان الروسيا والنمسا والمانيا اتفقت بعد حرب عام ١٨٧٠ التى قامت بين فرنسا والبروسيا واتفق امبراطرتها على العمل بالاتحاد فاهتمت الروسيا لتغيير الشرط المتعلق بحريتها فى البحر الاسود الذى اتفقت عليه الدول فى مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ودعت الدول لعقد مؤتمر للنظر فيه. فأجابت الدول دعوتها واجتمع مندوبوها فى عاصمة بلاد الانكليز فى ١٣ مارس سنة ١٨٧١ واتفقوا (ولم تشترك فرنسا مع الدول لاشتغالها بعقد الصلح مع البروسيا) على تغيير هذا الشرط واعطاء الروسيا الحرية التامة فى الملاحة بالبحر الاسود وتسيير سفنها فيه

ولما تحققت الروسيا من أن المانيا والنمسا مستعدتان لمساعدتها وان ايطاليا دولة ناشئة لايخشى منها وأن فرنسا ضعيفة بعد الهزيمة خافت صوتها وان ليس لها فى دول أوروبا من يستطيع معارضتها غير انكلترا وانها وحدها لاتستطيع ان تضرها بشىء — فضلا عن ان الروسيا كانت تعلم ان انكلترا لاتفيد تركيا شيئاً لان مبدأها فى كل أطوار سياستها ان تنتفع من غيرها ولا تنفع غيرها ـ اجتهدت (أى الروسيا) فى تهييج أمم البلقان وأرسلت في كل انحاء بلاد البلقان زعماء ينادون بالثورة ضد الدولة العلية وينشرون مبدأ اتحاد السلافيين تحت راية القيصر ويدعون أقوام البلقان كافة للعصيان باسم الدين الارثوذكسى ضد الحكومة العثمانية الاسلامية . وكان من مصلحة النمسا أن تهيج بلاد البوسنه والهرسك ضد الدولة العلية لما كان عندها من الامل فى الاستيلاء عليها فساعدت مهيجى الروسيا وأخذت تهيج كذلك أهالى هذه البلاد حتى هاج المسيحيون كافة فى بلاد البوسنه والهرسك وصارت المساعدات تأتيهم جهاراً من بلاد الصرب والجبل الاسود

وأرسلت لهم من النمسا الاسلحة والذخائر سراً . فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت الى البوسنه والهرسك جيشاً قوياً بقيادة القائد الشهير والبطل العظيم الغازي (مختار باشا)فقمع الثورة ورد كيد الثائرين ولكن دول الروسيا والنمساوألمانيا التي كانت تريد كما قدمنا استمرار الثورات والاضطرابات في الدولة توسطت بين الثائرين وبين الباب العالى وطلبت من الدولة أن تقبل مطالب الثوار بتخفيف الضرائب عنهم وبتركهم يعينون الشرطة (البوليس) من نفس أبناءالبوسنه والهرسك . فوعد المرحوم السلطان (عبدالعزيزخان)بالنظر فى هذه المطالب وبمنح رعاياه على اختلاف دياناتهم مايطلبونه من الامتيازات وما يراه موافقاً لهم وللدولة. وفى ١٢ديسمبر عام ١٧٧٥ أصدر السلطان ارادة عالية بقبول مطالب أهالى البوسنة والهرسك وبرهن بذلك على عدم تعصب الدولةضد رعاياها المسلمين . ولو كانت الدول راغبة حقيقة فى خير المسيحيين وغيرقاصدةضرر الدولة واضعافهالكانت اكتفت بهذه الارادة السلطانية وساعدت الدولةعلى تنفيذهاوأمرت

الثوار الذين هاجتهم ضد الدولة بالركون الي السكينة وبالامتثال لاوامر الحكومة العثمانية . ولكنها كانت تعمل لبث الفتن والثورات فأوعزت الى الثوار بعدم نزع السلاح وبالاستعداد للكفاح

وفى ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ قدمت الدول جميعها بما فيها فرنسا وايطاليا مذكرة للباب العالى طلبت منه فيها منح أهالى البوسنه والهرسك تمام الحرية الدينية وتقرير مساواة الاديان وتخفيف الضرائب وجعل الشرطة أهلية وتشكيل لجنة من أهالى البوسنه والهرسك مكون نصفها من مسيحيين والنصف الآخر من مسلمين لمراقبة تنفيذ ماجاء فى الارادة العلية التى أصدرها السلطان فى ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٥

وأول من وضع هذه المذكرة هو الكونت «اندراشى» وقد سميت باسمه . وهو مجرى أغضبت خطته نحو الدولة العلية فى هذه الحوادث الامة المجرية لشدة تعلقها بالدولة العلية واعترافها بالجميل للعثمانيين

ولم تتأخر الدولة العلية عن قبول مطالب الدول المذكورة

فی مذکرتها واجابتها عليها فی ١١ فبراير من السنة نفسها

فلما رأت الروسيا ان الدولة العلية قمعت الثورة أولا ولم ترفض مطالب الثوار ثانيا ولم ترفض مطالب الدول ثالثا وتحققت من أنه يستحيل عليها خلق سبب سياسی من المخابرات يقيم فی وجه تركيا أوروبا والرأی العام الاوروبي بذلت جهدها ووجهت كل عنايتها لجعل الثورة عامة في بلاد البلقان حتى تضعف الدولة وترتبك أحوالها من جهة وحتى يسهل عليها ان تشيع فی أوروبا الاشاعات الكاذبة عن معاملة الاتراك للمسيحيين وتهيج بذلك الرأی العام الاوروبي ضد الدولة العلية وضد المسلمين . فاجتمع ثوار البوسنه والهرسك فی (كوسيروفو) فی ٢٨ فبراير أی بعد قبول الدولة لمطالب الدول وقرروا بايعاز الروسيا الاستمرار على الثورة والعصيان وعدم الخضوع للدولة

وقد توصلت الروسيا الى تهييج بلاد الصرب ضد الدولة العلية فهاج أهلها وجاهروا بعداوة الدولة وطلبوا من حكومتهم محاربتها . فخابرت حكومتها حكومة الجبل الاسود واتفقت

معها ضد الدولة فصارت بذلك بلاد البلقان كلها قائمة على قدم وساق ضد الدولة . وبلغت الفوضى حدها فى هذه البلاد فاعتدى المجرمون على الابرياء وصار كل واحد من الثوار يفاخر الآخرين بما نهب وسلب من المسلمين . وصار الذين لا سلاح بأيديهم من المسلمين يدافعون به عن أنفسهم فريسة للمجرمين من السافكين للدماء من ثوار المسيحيين

رأى المسلمون في بلاد البلقان ماراأوا من الاهانة والسلب والنهب وأسيلت دماء الابرياء من الكثيرين منهم وأنصار الباطل والضلال فى أوروبا يشيعون فى كل مكان أن الدولة العلية دولة بربرية تسفك دماء المسيحيين وتهتك أعراض نسائهم وتخرب بيوتهم وكنائسهم وغير ذلك مما يكرره أعداء الدولة وأعداء الحقيقة فى كل خلاف يقع بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الدولة

وقد عمل أعداء الدولة على تهييج الرأى العام الاوروبى ضدها بكل الوسائل وحصل ان فتاة مسيحية اعتنقت الدين الاسلامي فى ضواحي سالونيك وذهبت لهذه المدينة لاثبات

اسلامها بصفة شرعية فعلم المسيحيون بالامر وتجمعوا فى طريق الفتاة حتى اختطفوها عند مرورها وأخفوها في بيت أحد المسيحيين فهاج المسلمون لذلك وذهبوا الى الحاكم طالبين تخليص الفتاة ثم اجتمعوا فى مسجد للمداولة في الامر . وبينماهم مجتمعون اذ دخل عليهم قنصلا ألمانيا وفرنسا فاعتدى عليهما بعض الحاضرين لاعتبارهم دخول القنصلين فى المسجد اهانة لهم وضربوهما ضربا قضى عليهما في الحال . فانتشر خبر الحادثة فى أوروبا وما انتشر حتى نادى أعداء الدولة بالويل والثبور وحملوا على الاسلام ودولته العزيزة حملات شديدة وهاجوا الرأى العام ضد الحكومة العثمانية حتى اضطرت الدول كلها لارسال سفن حربية الى ميناء سالونيك ولم يستطع الباب العالي ان يفهم أوروبا ان القنصلين اخطآ فى الذهاب الى المسجد بل طلبت منه الدول معاقبة المعتدين ولما لم يجد سبيلا لرفض طلب الدول عاقب من ثبت عليهم الاعتداء على القنصلين بالاعدام وانتهت بذلك هذه الحادثة وهى حادثة من حوادث عديدة خلقتها يد الدسائس والاغراض

للايقاع بالدولة والاضرار بها . وانى لست ممن يستبعدون ان اسلام هذه الفتاة المسيحية كان مصطنعا وان الحادثة مدبرة من أولها لآخرها . فكل من طالع شيئا من أعمال أرباب الدسائس فى الدولة يعلم انهم قادرون على ايجاد حادثة كهذه وأكبر منها

وقد عرض فى هذه الاثناء ثوار البوسنه والهرسك على دول أوروبا انهم ينكفون عن الثورة ويعيدون السكينة الى بلادهم اذا أنفذت الشروط الآتية :

أولا أن تعطى الدولة العلية للمسيحيين ثلث الاراضى التى بيد المسلمين

ثانياً أن تصلح لهم المنازل التى هدمت بسبب الثورة وان تساعدهم بالمال وان تقدم لهم الثيران اللازمة لحرث الارض

ثالثاً أن تعفيهم من الضرائب مدة ثلاث سنين

رابعا ان تنجلى العساكر التركية النظامية من بلاد البوسنه والهرسك وان تبقى فقط فى (نيكشيش)

و(ستولاز)و (فوكا)و(تربين) و (بيوجلي)
و (مستار) وان ترسل النمسا والروسيا مندوبين
من قبلهما فى هذه البلاد لمراقبة تنفيذ هذه الشروط
خامساً نزع السلاح من المسلمين
سادسا ضمانة الدول الاوروبية لتنفيذ هذه الشروط

ولما رأت صربيا وبلغاريا والجبل الاسود ان الروسيا والنمسا والمانيا تشجع ثوار البوسنه والهرسك أصغت لارشادات المهيجين وقامت مستعدة لمحاربة تركيا والانتقام من الاسلام باسم الصليب . ولما أرادت الروسيا أن تعجل بالحرب وباسقاط المصائب على تركيا دعت النمسا والمانيا للاشتراك معها فى تقديم انذار جديد للباب العالى فاجابت النمسا والمانيا طلبها واجتمع البرنس (غورتشاكوف) عن الروسيا والكونت (اندراشى) عن النمسا مع البرنس (بسمارك) في برلين وتم اتفاقهم فى ١١ مايو سنة ١٨٧٦ على انذار ترسله دولهم الى الباب العالى

ولم تطلب الدول الثلاث من الباب العالى ماطلبته في

مذكرة (اندراشى) التى أرسلت فى ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ بل طلبت جل ماأراد ثوارالبوسنه والهرسك فاشتملت مذكراتها على الطلبات الآتية :

أولا ان يصلح الباب العالى المنازل التى دمرت بسبب الثورة وان يقدم كل مايلزم للفلاحين من الثيران والآلات وان يعفى أهالى البوسنه والهرسك من الضرائب مدة ثلاث سنوات

ثانياً ان يعين الباب العالى لجنة من أعيان أهالى البوسنه والهرسك المسيحيين لتوزيع المساعدات المادية التى يقدمها

ثالثا ان يسحب العساكر التركية من بلاد البوسنه والهرسك والا يتركها تحتل غير عشر قلاع معينة

رابعا ان يترك المسيحيين مسلحين لغاية اتمام الاصلاحات واعادة الامن والسكينة الى بلاد البوسنه والهرسك

خامسا ان يكون لقناصل الدول أو لمندوبيها الحق فى مراقبة تنفيذ هذه الطلبات . وطلبت الدول الثلاث

غير هـذه الطلبات ان تمنح تركيا للثوار هـدنة
شهرين وهددتها بانها ان لم تنفذ هذه الطلبات مدة
الشهرين اتخذت معها طرق القوة والقهر

وقد قبلت فرنسا وايطاليا التوقيع على هذه المذكرة أما انكلترا فرفضت التوقيع عليها بالمرة

ولا شك ان المطالع لهـذه الشروط يقف منـدهشا مستغربا من معاملة دول أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها بأشنع الصور وأقبحها ويدرك من نفسه ان هذه الشروط لو كان يطلب تنفيذها من أحقر دول الارض لكانت رفضت قبولها ولو أدى رفضها الى دمارها وخرابها . فموت فيه شرف خـير من حياة تلطخ بالعار . ولذلك كان يستحيل على الدولة العلية ان تقبل هذه الشروط ولو لحظة واحـدة . فان طلب الدول بقاء الجنود العثمانية فى جهات مخصوصـة وقلاع معينة مع بقاء المسيحيين مسلحين هو تشجيع للثوار عظيم وطلب الدول اعطاء الحـكومة العثمانية للمسيحيين كل مايحتاجون اليه من المساعدات المـادية واصـلاح المنازل التى دمرت بسبب

الثورة هو طلب لاتستطيع ميزانية تركيا أن تقوم به وتهديد الدول للدولة باتخاذ طرق القوة والقهر معها ان لم تنفذ طلباتها هو تشجيع لكل أمم البلقان على الثورة ضد الدولة العلية

ومن سوء حظ الدولة ان أسقط عن عرش السلطنة العثمانية فى هذا الوقت المتلىء بالاضطرابات والاخطار المرحوم السلطان (عبد العزيز خان) وأجلس مكانه السلطان (مراد الخامس) الذى لم يحكم الا خمسة أشهر

*
* *

وبديهي ان الروسيا كانت ترمى الى اضعاف تركيا بالثورات والاضطرابات والحرب مع أمم البلقان حتى اذا ثبطت عزيمتها وقلت همتها تحولت ضدها برجالها وقوتها . وهى سياسة لايمكن لمؤرخ عادل ان يقول انها سياسة شريفة لان الروسيا كان يجب عليها ان تحارب تركيا من بادىء الأمر لاأن تهيج ضدها البوسنه والهرسك وصربيا والجبل الاسود وبلغاريا

فقد قام البلغاريون فى وجه الدولة وجعلوا غايتهم قتل

المسلمين فاتوا من الفظائع والجرائم مالا يستطيع وصفه قلم وصار أنصار الضلال فى أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان الدولة تذبحهم هم ونساؤهم وأطفالهم مع انهم كانوا المعتدين على الابرياء من المسلمين

وقد استعدت كذلك صربيا والجبل الاسود لمحاربة الدولة فاتحد أميرا هاتين الامارتين ضد الدولة وحشدا الجنود بكثرة وأرسلت الروسيا ضابطا من أمهر ضباطها (تشرنايف) لقيادة الجيش الصربى . فلما علمت الدولة العلية باستعدادات صربيا والجبل الاسود الحربية أرسلت الى أميريهما فى ٩ يونيو عام ١٨٧٦ تسألهما عن سبب هذه الاستعدادات فاجابت الصرب بأنها تطلب من الباب العالى ان تنجلى العساكر العثمانية من مقاطعتى البوسنه والهرسك وان تحتل العساكر الصربية مقاطعة البوسنه وان تحتل عساكر الجبل الاسود مقاطعة الهرسك . فرفض الباب العالى هذا الطلب الغريب بغاية الشدة والشهامة وأرسل بجيشه الى حدود الصرب والجبل الاسود . وفى ٣٠ يونيو أعلنت الصرب الحرب على تركيـ

وفى ٢ يوليو أعلنها الجبل الاسود

ولما كانت الروسيا تعلم ان تظاهر صربيا والجبل الاسود برغبة احتلال البوسنه والهرسك من شأنه أن يكدر النمسا التى تريد تقوية نفوذها فى البلقان وتطمح الى الاستيلاء على هاتين المقاطعتين سافر القيصر (اسكندر الثانى) بنفسه الى (ريشتاد) فى بوهيميا وتقابل مع (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا وتحادث معه طويلا فى أمور الشرق . ويحقق كثيرون من المؤرخين بأن القيصر وعد امبراطور النمسا باعطائه البوسنه والهرسك بعد انتهاء أزمة المسئلة الشرقية فبقيت النمسا بذلك على الحيادة وقت الحرب بين الدولة العلية وبين صربيا والجبل الاسود

وقد كان يظن سواس أوروبا وكتابها ورجال الحرب فيها ان الدولة العلية ستقهر فى هذه الحرب امام صربيا والجبل الاسود ولكنهم علموا بعدئذ ان جنود تركيا لايزالون ليوثا فى الحرب وآساداً فى معامع القتال فقد انتصروا على عساكر الجبل الاسود وجنود صربيا نصراً مبيناً بقيادة الغازى عثمان

باشا والمرحوم عبد الكريم باشا وهزموهم فى (زيتشار) هزيمة اهتزت لها أوروبا ومادت لها محافلها ونواديها . ولما شعرت صربيا بأن بلغراد عاصمة بلادها صارت نفسها فى خطر طلبت من الدول بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٦ ان تتوسط بينها وبين الدولة العلية فسألت الدول الاوروبية الدولة العلية ان تعرض عليها الشروط التى تقبل معها عقد الصلح فأجابتها بهذه الشروط :

أولا ان تعود الاحوال فى صربيا الى ما كانت عليه قبل عام ١٨٦٧

ثانياً ان تهدم القلاع التي بنتها صربيا بعد عام ١٨٦٧

ثالثاً ان ترد القلاع التى كانت محتلة لها تركيامن قبل اليها

رابعا ان تدفع صربيا غرامة حربية أو أن تقبل ازدياد الخراج السنوى الذى تدفعه لتركيا

خامسا ألا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة آلاف مقاتل

سادسا ان يسافر أمير الصرب الى الاستانة ليقدم

واجبات الخضوع والتابعية للحضرة السلطانية وليستلم فرمان تعيينه أميراً على الصرب

فرأت الدول ان هذه الشروط قاسية جداً وان قبولها يضر بالصرب ضررا بليغا على ان القارىءاذا تذكر الطلبات التي اتفقت عليهاالروسيا والنمسا والمانيا فى برلين بشأن البوسنه والهرسك وطلبتها من الباب العالى لوجد شروط الدولةالعلية مع الصرب أخف كثيرا من طلبات الدول مع ان الدولة غلبت الصرب وانتصرت عليها انتصارا باهرا . فطلبت الدول من انكلترا التي كانت تدعى مساعدة تركيا ـ وما كانت تعمل فى الحقيقة الا على تشجيع رجال تركيا فى معارضتهم ضد الدول مع علمها باتفاق الدول كلها ضد تركيا ـ ان تعرض على الباب العالى شروطاً أخرى

وفي هذه الاثناء جلس جلالة مولانا السلطان الاعظم والخليفة الاكبر ﴿عبد الحميدخان﴾ على أريكة المملكة العثمانية حيث المصاعب تحيط بها من كل جانب وأعداؤها يدسون لها الدسائس فى كافة انحائها والدول كلها متحدة

ضدها فبذل أقصى جهده فى تنظيم الامور واصلاح الاحوال ودفع المصائب والاخطار

وقد عرض الكونت (دى بيكونسفيلد) الوزير الاول لانكلترا على الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة أسابيع للمخابرة فيها فى شروط الصلح وبقاء الحالة على ماهى عليه فى صربيا ومنح البوسنه والهرسك استقلالا اداريا فرفضت الدولة هذه الطلبات خصوصا وان القيصر أوعز الى صربيا باستئناف الحرب مرة ثانية فجمعت جنودها وجندت من لم يجند منهم . وفي ١ اكتوبر سنة ١٨٧٦ أرسل القيصر الى (فرنسواجوزيف) امبراطور النمسا كتابا سرياً سأله فيه إتحاد النمسا مع الروسيا لاحتلال بلاد البلقان كلها فرفض امبراطور النمسا طلب القيصر خوفا من نتائج عمل خطير كهذا .

وفى ٥ أكتوبر طلبت انكلترا من الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة أسابيع وفتح مذاكرة بين الدول وقت الهدنة بشأن عقد الصلح فأجابت الدولة العلية بأن الهدنة يجب أن

تكون لمدة ستة أشهر حتى تستطيع جنودها أن تستريح من أنصاب الحرب وبأن يمنع وصول الاسلحة والذخائر لثوار البوسنه والهرسك واصربيا والجبل الاسود وقت الهدنة . فلم تقبل الدول طلب الدولة العلية العادل وأرسلت الروسيا فى ١٥ اكتوبر الجنرال (اغناتييف) للاستانة حاملا انذارا للباب العالى يتضمن هذه الشروط :

أولا عقد هدنة لمدة ستة أسابيع بلا شرط : ثانيا منح البوسنه والهرسك وبلغاريا استقلالا اداريا : ثالثا ضمانة الدول الاوروبية لحقوق هذه المقاطعات

وما وصل (اغناتييف) الى الاستانة حتى وصلته أخبار انهزام الجيش الصربي امام الجيش العثمانى الظافر . فقد انتصرت الجنود العثمانيـة انتصاراً عظيما فى (دليجراد) و « الكسيناتس » وباتوا على مقربة من « بلغراد » عاصمة الصرب التى صار أمر سقوطها فى أيدى العثمانيين محققا . فقدم فى الحال (اغناتييف) انذاره للباب العالى وقبلت الدولة العلية عقد الهدنة فى ٢ نوفمبر عام ١٨٧٦

ولما رأت انكلترا ان الروسيا تهدد الدولة العلية على لسان الجنرال (اغناتييف) أرادت أن تظهر لتركيا مودتها لها لتنتفع من هذه المودة عند الحاجة كما سيرى القارىء فأمرت أسطولها بالسفر الى مياه الشرق والوقوف فى (بزيكا) أى فى مدخل الدردانيل . وعندئذ اتفقت الدول على عقد مذاكرة بينها وبين بعضها فى الاستانة

* * *

وقد اجتمع مندوبو الدول بالاستانة فى أوائل دسمبر عام ١٨٧٦ وقرروا عدم اشتراك تركيا فى مداولاتهم ومناقشاتهم بل ارسال قرارهم النهائى اليها بعد اتمام المداولات والاتفاق عليه . وهى أول مرة اجتمع مؤتمر دولى فى عاصمة بلاد لم تشترك فى هذا المؤتمر ! . وفى ٢٣ دسمبر تم اتفاق مندوبى الدول على وضع قرار نهائى وفي ٢٤ منه أبلغ هذا القرار الى الباب العالى . وهو يتضمن أن الدولة العلية تتنازل لبلاد الصرب والجبل الاسود عن بعض الاراضى ليتسع نطاق امارتيهما . كأنهما الغالبتان لتركيا ! ويتضمن ان البوسنه

والهرسك تصيران مستقلتين استقلالا اداريا وأن يعين لهما لمدة خمس سنوات حاكم يجب ان يكون تعيينه بموافقة الدول وأن يكون البوليس فى البوسنه والهرسك مسيحيا وأن يترك لهاتين المقاطعتين نصف ايرادهما وان تكون لغة البوسنه والهرسك هى اللغة الرسمية فيهما ويتضمن القرار غير ذلك أن القسم الموجود فى شمال البلقان من بلاد بلغاريا يصير مستقلا استقلالا اداريا كالبوسنه والهرسك وان تحتل الجنود البلجيكية هذه المقاطعات السالفة الذكر لحين تنفيذ قرار الدول وان تعين لجنة دولية لمراقبة تنفيذ هذا القرار

ولا ريب أن قرار الدول هذا كان فى الحقيقة اعلانا لتركيا بان دول أوروبا كلها متعصبة ضدها وانها متحدة فى العمل على الاضرار بها . فان الدول الاوروبية كانت تعلم علم اليقين ان هذه المطالب ترفضها تركيا رفضاً باتا لما فيها من المساس بحقوقها . وكيف كانت تستطيع تركيا أن تقبلها بعد ان أقمعت الثورة في البوسنه والهرسك وهزمت جنود الصرب والجبل الاسود شر هزيمة ؟

وقد كانت انكلترا وحدها تتظاهر للدولة العلية بالمحبة والولاء ولكنها أضرت بها كغيرها بل اكثر من غيرها لان الدولة العلية انخدعت بتظاهر سواس الانكليز بالميل لها وحسبت ان بريطانيا مساعدة لها ضد الروسيا وقت الحرب فلما جاءت الحرب علمت تركيا ان انكلترا كانت ترمى فقط الى تشجيعها على معارضة أوروبا مع علمها باتحاد أوروبا ضدها وكذلك خدعت انكلترا تركيا عند عقد مؤتمر برلين حيث أخذت منها قبرص كما سيرى القارىء

ولما رأى مندوبو فرنسا ان الدولة العلية عازمة على رفض مطالب المؤتمر عرضوا على بقية الاعضاء تعديل الطلبات فقبلوا ذلك وأبلغوا الباب العالى انهم يتركون مسئلة تنازل الدولة العلية للصرب والجبل الاسود عن بعض الاراضى لمخابرة أخرى وانهم لا يسألون الباب العالى ان يستشير الدول في تعيين حاكم البوسنه والهرسك الا في الخمس سنين الاولى وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن تقسيم بلغاريا الى قسمين وجعل قسم منها مستقلا استقلالا اداريا وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن

جعل البوليس كله في البوسنه والهرسك مسيحيا وقبلوا ان يكون من المسيحيين ومن المسلمين وانهم قبلوا اعتبار اللغة التركية في البوسنه والهرسك رسمية كاللغة السلافية . وحددوا للباب العالى مدة ثلاثة أشهر لتنفيذ مابقى من مطالب الدول

وقد أمضى مندوبو انكلترا على هـذا القرار مع بقية منـدوبي الدول ولـكنهم كانوا ينصحون لسواس تركياسراً برفض مطالب الدول

ولـكى تعلم الامـة العثمانية ان جلالة السلطان الاعظم لا يعرض بمصالحها للخطر وأنه يستشـير في صغائر الامور وكبائرها كبار الامة وعقلاءها جمع جلالة السلطان الاعظم مجلسا عاليا مكونا من مائة وثمانين عضوا من كبراء الامـة ورؤساء الطوائف والمذاهب وعرض عليهم مطالب الدول وسألهم رأيهـم في الامر فرفضوها بالاجماع وأشاروا على جلالة السلطان برفضها فقرر جلالته رفضها عملا برأى كبراء الامة ورؤساء المذاهب والديانات وحفظاً لـكرامة الدولة وصيانة لشرفها

وفي ٢٠ يناير عام ١٨٧٧ أعلن صفوت باشا مندوبى الدول رسميا بان الدولة العلية رفضت مطالبهم لمساسها بمصالحها الجوهرية . فانفض بذلك المجتمع الدولى وترك مندوبو الدول كافة الاستانة اظهارا لغضب دولهم وانقطاع العلائق السياسية

وفى ٣٠ يناير من السنة نفسها كتب المسيو (غورتشاكوف) وزير الروسيا الاول الى الدول الاوروبية يسألها عن الوسائل التى ستتخذها مع تركيا لاجبارها على قبول مطالبها ويعلمها بأن الروسيا مستعدة للعمل وحدها ضد تركيا . وفى الوقت نفسه اتفق القيصر مع (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا على بقاء النمسا على الحيادة أثناء الحرب بين الدولة العلية والروسيا وقبل القيصر الشروط الآتية : أولا الا تدعى احدى الدول الاوروبية ان لها وحدها حق حماية المسيحيين فى الدولة العلية وان يكون لدول أوروبا كلها القول الفصل بين تركيا والروسيا بعد نهاية الحرب . ثانيا الا تأخذ الروسيا شيئا ما من الاراضى الواقعة على الشاطىء الايمن لنهر الطونة وان تحترم استقلال رومانيا والا تمس الاستانة

بسوء . ثالثا اذا أوجدت الروسيا امارة سلافية جديدة يجب ألا يكون ذلك ضد مصلحة البلاد الغير سلافية والا تدعى الروسيا حقوقا على بلغاريا التي يجب ألا يحكمها أمير روسى ولا أمير نمساوى . رابعا ألا تمر الجنود الروسية من بلاد الصرب

ولم تكتف الروسيا باتفاقها مع النمسا ومساعدة ألمانيا لها من أول الازمة كل المساعدة بل أرادت أن تتحقق من مساعدة بقية الدول الاوروبية لها مساعدة معنوية فأرسلت الجنرال (اغناتييف) الى عواصم أوروبا فزارها عاصمة بعد عاصمة حتى لوندره نفسها . وفى كل عاصمة من عواصم أوروبا قوبل بالترحاب ووعد بعدم معارضة الروسيا فى شيء وفى لوندرة اتفق مع الوزارة الانكليزية على عقد مؤتمر دولى فى لوندره لارسال انذار أخير للباب العالى . وبالفعل اجتمع المؤتمر وفى ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ أرسل الانذار الدولى للباب العالى متضمنا انه يجب على الدولة العلية أن تتمم عقد الصلح مع الجبل الاسود وان تترك له الاراضى التي يطالب بها وان

تنفذ الاصلاحات التى طلبتها منها الدول وان تجعل عساكرها
فى حالة السلم بان تقلل عددها العظيم الذى جمعتــه للحرب .
وأنذرتها الدول بانها كلها مستعدة لان تتحد وتقرر الوسائل
الفعالة ضدها ان لم تقبـل مطالبها فى أقرب وقت . وبذلك
اشتركت أوروبا كلها اشــتراكا معنويا فى معاداة الروســيا
لتركيا وتهييجها أمم البلقان عليها وتحملت مسئولية كل ماعملته
الروسيا ضد تركيا

وقد أرسلت الروســيا بانفرادها انذاراً آخر للباب
العالى أشــد لهجة من الانذار الدولى فعرض الباب العالى
هذين الانذارين على مجلس المبعوثان ليرى رأيه فيهمافرفضهما
في ٩ ابريل ســنة ١٨٧٧ وفى ١١ ابريل أعلن الباب العالى
الدول الاوروبية رفضه لهما . ومن ذلك اليوم صارت الحرب
على أبواب تركيا وأخذت الدولة العلية من جهــة والروسيا
من جهة أخرى تتمم تجهيزاتها الحربية وترسل جيوشها على
الحدود

ولمـا رأت الروســيا انها لاتســتطيع التغلب على تركيا

والفوز عليها الا اذا عبرت جيوشها بلاد رومانيا عقدت فى ١٦ ابريل مع هـذه الامارة ـ خلافا لاتفاقها مع النمسا ـ اتفاقية تسمح للجنود الروسية بعبور أراضى رومانيا . وفى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ أعلنت الروسيا رسميا الحرب على تركيا مبينة فى اعلانها ان غرضها بالحرب نصرة المسيحيين :

فلما علمت انكلترا بان الحرب لا بد منها سألت الروسيا عدم المساس بمصالحها فى الشرق واحترام صوالحها . فأجابتها الروسيا على ذلك . وهذه هى المساعـدة التى قدمتها انكلترا للدولة العلية !

وقد اتخذت الجنود الروسية فى القرم وفى البحر الاسود خطة دفاعيـة وجعلت خطتها الهجوميـة فى جهـة القوقاز والدانوب

وسار الجيش الروسى فى آسـيا تحت قيادة الجنرال (لويس مليكوف) وبعـد مجهودات عظيـمة وقتال عنيف استولى فى ١٩ مايو على مدينة أردهان وسار فى أوائل يونيه الى مدينة (أرضروم) . أما فى أوروبا فقـد اتفقت الروسية

مع رومانيا (التي أعلنت عندئذ استقلالها التام عن الدولة العلية) فى ١٤ مايو عام ١٨٧٧ اتفاقا دفاعيا هجوميا وانضمت جنود رومانيا الى جنود الروسيا وعبرت بلغاريا الشمالية.وفى أواسط يوليو احتلت مدينة نيكوبلى واحتل الجنرال (جوركو) مضايق البلقان الموصلة لمضيق شيبكا الشهير . وقد أحدثت هذه الاخبار تأثيرا شديدا فى الاستانة وفى أوروبا كلها وازداد اهتمام الباب العالى بأحوال الجيش . الا أنه من سوء حظ الدولة وشى بعض الدخلاء بالشهم المشهور (عبد الكريم باشا) فعزلته الدولة وعزلت رديف باشا ناظر الحربية وعينت بدل عبدالكريم باشا (محمد على باشا) وهو ضابط روسى الاصل اعتنق الاسلام ودخل فى عسكرية الدولة

ولما علم دولة الغازى (عثمان باشا) بانتصار الجيوش الروسية والرومانية أتي بجيشه الى مدينة (بلفنه) وحصنها أحسن تحصين

وقد هاجت الخواطر فى بلاد المجر حين ذاك هيجانا شديداً لانتصار الروسيا على تركيا فى بعض مواقع وصار

المجريون يتظاهرون فى الشوارع وفى المجتمعات ضد الروسيا وينادون بمحبة تركيا التى ساعدت ثوارهم عام ١٨٤٩ وأخذوا يسألون حكومتهم مساعدة تركيا بالفعل . الا ان النمسا التى بيدها زمام القيادة العامة للجيش المجرى والنمساوى كانت على الحيادة وكان (بسمارك) يسمعها من وقت الى آخر ان نصيبها من أملاك تركيا سيكون (البوسنه والهرسك) . فكانت راضية بالحرب غير حاسبة لتقوية نفوذ الروسيا فى بلاد البلقان حسابا

وبالجملة لم يكن لتركيا فى أمم أوروبا محب يخلص الحب لها غير الامة المجرية ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئا ما فى صالحها .

وقدظن سواس أوروبا ورجال العسكرية فيها ان الروسيا ستستمر سائرة فى طريق النصر ولكن الاخبار ملأت أوروبا بعدئذ ان الجنود العثمانية انتصرت على الجنود الروسية انتصاراً باهراً (فى قارص) بفضل البطل الشهير الغازى (أحمد مختار باشا) واضطر الروسيون لرفع الحصار عن هذه المدينة .

وفى يوليو وأغسطس وسبتمبر عام ٨٧٧، هاجمت الجنود الروسية مدينة (بلفنه) المرة بعد الاخرى وارتدوا على أعقابهم خاسرين لما أقام حولها الغازى (عثمان باشا) من المعاقل والحصون المنيعة

ولكن سوء حظ الدولة العلية قضى عليها بألا ترسل مايلزم من المدد للغازى (مختار باشا) بعد ان فقد جيشه الرجال الابطال . فسقطت منه لذلك (قارص) فى أيدى الروسيين فى شهر نوفمبر عام ١٨٧٧ . وسار بعد ذلك الجنرال الروسى (مليكوف) على (أرضروم) . أما (بلفنه) فقد أعيت معاقلها وحصونها الروسيين فحاصروها حصاراً شديدا وشهدوا قوة الاتراك وشهامتهم وأعجب قيصر الروس نفسه بمهارة الغازى (عثمان باشا) وقوة ادراكه . وقد طالت محاصرة (بلفنه) حتى انقطع المدد عن الاتراك ونفذ كل ماعندهم من الذخائر فعزم الغازى (عثمان باشا) على الخروج من (بلفنه) مع جنوده الاشداء وفى ١٠ دسمبر عام ١٨٧٧ خرج بالفعل ومرت الجنود العثمانية من وسط الاعداء غير

خائفة نيرانهم ولا مقذوفاتهم بل جاعلة وجهتها الاستحكامات التى كان أقامها الروسيون حول (بلفنه) على ثلاثة خطوط متعاقبة واستولت على مدافع الخط الاول والثانى وكادت تستولى على الخط الثالث غير ان الغازى (عثمان باشا) وقع جريحاً فظنه قومه ميتا وانتشر خبر موته بين الجنود العثمانية فثبطت هممهم وانحلت عزائمهم . ودخل الروسيون فى هذه الاثناء (بلفنه) واضطر قواد الجيش العثمانى للتسليم والاتفاق مع قواد الجيش الروسى على ايقاف الحرب بالقاء الجيش العثمانى للسلاح وقد فقد الجيش الروسى فى محاصرة (بلفنه) ٢٨٠٨٠ رجلا وفقد الجيش العثماني ١٥٣٠٠ رجلا

ولم يعتبر رجال العسكرية فى أوروبا سقوط (بلفنه) انتصارا للروسيين على العثمانيين بل أعجب كل انسان بالعثمانيين أكثر من اعجابه بالروسيين فان الروسيين كان عددهم مائة وخمسين الف مقاتل وكان عدد العثمانيين ثلثهم أى خمسين الفا فقط . وقد أظهر القيصر اسكندر الثانى نفسه للغازى (عثمان باشا) عظيم اعجابه بدفاعه عن (بلفنه) وقال

له ان هذا الدفاع يعد من الاعمال الحربية النادرة المثال فى تاريخ البشر

وبالجملة فلم تنتصر الروسيا على تركيا فى هذه الحرب الا بالدسائس العديدة التى دستها ضدها في البوسنه والهرسك وفي بلاد البلقان . فقد رأى القارىء ان الدولة العلية اضطرت الى قمع ثورة عظيمة فى البوسنه والهرسك ومحاربة الصرب والجبل الاسود وقمع ثورة بلغاريا مما أراق دماء كثيرة من دماء العثمانيين وأمات أبطالا من جنود الدولة وحملها الاموال والمصاريف الطائلة

ومع ان الثورة فى البوسنه والهرسك وبلغاريا والحرب مع صربيا والجبل الاسود أضعفت جيوش الدولة فان هذه الجيوش الفخمة حاربت الروسيا بكل قوة وشهامة وانتصرت عليها فى مواضع مختلفة . ولم تحارب الروسيا تركيا بجيوشها وحدها بل استعانت برومانيا التى قدمت لها نحو المائة الف مقاتل . ولو كانت الروسيا حاربت تركيا من بادىء الامر قبل أن تهيج البوسنه والهرسك وبلغاريا والصرب والجبل

الاسود ضدها لكانت انتصرت تركيا ولا محالة وخابت الروسيا وهزمت شر هزيمة

واذا أضاف القارىء الى ماتقدم أن تركيا كانت تضع ثقتها فى رجال من الدخلاء يعملون بأوامر الاجنبي ويعرضون بمصالح الدولة للدمار وانه كان بين قواد جيشها قائد روسى الاصل علم فضل تركيا فى انتصارها على الروسيا فى بعض مواقع مهمة

ولا بد لنا من ان نذكر للقارىء أيضا ان جنود الجبل كانت تعاكس جنود الدولة أثناء الحرب وان الصرب انضم جيشها لجيش الروسيا بعد سقوط (بلفنه) . فكانت الدولة العلية بذلك مشتغلة من كل جانب برد الاعداء عن ديارها ولم يكن لها نصير ينصرها على أعدائها بل كانت وحدها امام أعداء عديدين وكان اعتمادها على محض قوتها

*
* *

طالما ادعى أعداء الدولة العلية انها اذا فتحت بلاداً نشرت فيها لجنودها راية السلب والنهب والفتك بأهلها واذا

مرت بأرض خربتها وغيرت معالمها . فليقرأ المنصفون ماعمله الروسيون وصنائعهم البلغاريون فى هذه الحرب مع المسلمين الابرياء الذين لم يكن لديهم أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم بل كانوا آمنين مطمئنين يحسبون الحرب بشرية انسانية لا بهيمية بربرية

وقد أتى السير اشميد برتلت في كتابه الحديث (مواقع تساليا) علي تاريخ كثير من هذه الفظائع . وانا نذكر للقراء الكرام شيئا منها :

لما عبر الجنرال سكوبيف نهر شيبكا فى ينايرسنة ١٨٧٧ وجد معسكرا يحتوى على مائة ألف من نساء الاتراك نازلا بقرب هرمنلى فلم يكن من جنوده سوى انهم فتكوا بهن وطردوهن امامهم على ثلوج نهر ميرتزا الى جبال رودب حتى مات أكثرهن من البرد والجوع

وانا نستشهد علي هذه المعاملات البربرية واعتداء الروسيين والبلغاريين على الابرياء من المسلمين بما جاء فى جريدة الدالى نيوز وقد كانت اذ ذاك منتصرة للروسيا . ففى

بعدد ٨ فبراير سنة ١٨٧٨ جاء فيها بالحرف الواحد :

ادريا نوبل فى ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ لمكاتبنا فى الحرب

« ان المسافة التى بين (فيلوبوبوليس) و (هرمنلى) تبلغ سبعين ميلا قد كانت بالامس مرتعا لآلاف من العائلات واليوم أصبحت قاعا صفصفا خاوية على عروشها ليس بها سوى جيف الموتى وعظام القتلى وبقايا المذبوحين . فتحولت نضارتها السابقة الى منظر مخيف وأطلال دوارس وذلك نتيجة ماحصل من الفظائع المنكرة التى تقشعر من هولها الابدان. ولا يمكن لاى انسان أن يتصور مهما اجتهد ان يحاول تلك الاهوال التى وقعت فى تلك البقعة والحالة التى وصلت اليها »

وكتب هذا الكاتب نفسه :

« بينما نحن نسير من (فيلوبوبوليس) كنا نرى جثث الفلاحين مغطاة بالثلوج ولا شك ان بعضها قد لبث على هذه الحالة الشنيعة المحزنة أسبوعين أو ثلاثة ولم تزل آثار الدماء على ملابس بعضهم . وهكذا كنا نسير بين رمم القتلى وآثار الخيام والارض حولنا مغطاة بالجثث وبقايا المعسكرات كما

تغطى بالبسط والفرش وكنا نخترق صفوفا من جثث القتلى ورمم الحيوانات مسافة لاتقل عن خمسة وثلاثين ميلا . فرأينا نساء ملقاة فى الثلوج وأولادا وأطفالا مرماة فى البرك ورجالا ممزقة أجسادهم مما أصابهم من الجراحات القتالة . ورأينا الثلج محمرا من أثر الدماء المنهطلة وأظن ان أغلب النساء متن من البرد القارص لان نضارة الحياة كانت بادية على وجوههن فكأنهن نيام للراحة من عناء هذا العالم ومعاملة أهله البربرية باسم المدنية

اما الرجال فكنت تراهم واحدا بجانب الآخر تظهر عليهم علائم العظمة حتى مع الموت وذقونهم ملوثة بدمائهم وأيديهم موضوعة على صدورهم كأنهم يحافظون على قلوبهم الشريفة من أن تدوسها أعداؤهم باقدام الخيل

اما الاطفال والاولاد فهم كالنساء مات أغلبهم من شدة البرد القارص والثلوج المتراكمة . فكنت ترى أوجههم لطيفة بعضها باد وبعضها مغطى بالثلج وكانت تلوح عليهم نضارة الطفولية وتظهر عليهم الطهارة والبراءة التامة كأنهم

نائمون نوما طبيعيا أو كأنما جعلت من الثلوج الناصعة البياض سرائرهم وأيديهم الناعمة البيضاء بارزة من المياه الذائبة

ولا أشك ان أمهاتهم لما رأينهم أمواتا على صدورهن من شدة البرد وان لا أمل فى عودتهم للحياة رمينهم فى الثلوج ليخففن حملهن وفارقن حشاشات أكبادهن بالرغم عنهن والدموع تسيل من عيونهن حتى اذا أدركت الخدود تحولت بردا من شدة الزمهرير

« وانى لم أشعر بيأس زائد وبلاء عظيم في حياتى الا عند ما رأيت بعينى الفظائع والمصائب التى حلت على بنى الانسان. فلقد رأيت امرأة تسير بجانب طفلة تناهز العاشرة من عمرها وهما تجدان فى المسير فراراً من معاملة الروسيين وقساوتهم البربرية ولكن الابنة لم تقو على المشى لان أقدامها العارية تعبت غاية التعب من المسير على الثلج فسقطت ميتة بين أيدى أمها الحنونة ولقد داهم الام الليل بظلامه الحالك وبرده الفاتك فسقطت طريحة بجانب ابنتها

وان الطريق الى (هاسكيوى) مملوأة بجثث عديدة

وكلما مررنا على قرية رأيناها خاوية على عروشها ليس بها الا بقايا المذبوحين والمقتولين ولقد سألنا بعض البلغاريين : من قتل هؤلاء ؟ فأجابونا بصوت الشامت المسرور « اننا ونصراءنا قتلناهم شر قتلة »

أما فى هاسكيوى فكنت ترى كثيراً من الجنود التركية مقتولين وفضلا عما أصابهم من الجراح القاتلة فان فلاحى البلغار لم يشفقوا عليهم بل رجموهم بالحجارة ليفنوا عظام هؤلاء الشهداء الابطال

ولقد سألت احدى العائلات التركية من أين جاءت والى أين تسير ؟ فقالت لي انها تركت (بلفنه) من خمسة شهور مضت وهي على مثل حالها من الفقر المدقع تسير ليلا ونهارا لاغذاء لديها سوى ماتجده من لحوم الحيوانات التي تموت فى الطرق وكانت هذه العائلة مكونة من أب وأم على صدرها طفل صغير وولد يبلغ العاشرة من العمر وكلهم حفاة عراة الارض فراشهم والسماء غطاؤهم وليس لديهم سوى بعض خرق يسترون بها سوآتهم وقدرة يطبخون فيها اللحم

وكلما سرنا خطوة بعد (هاسكيوى) رأينا مناظر أبشع وأفظع فكم رأينا امرأة وزوجها مقتولين نائمين بجانب بعضهما وطفلين بقربهما على الثلوج وشيوخا متكسرة جماجمهم وكل هذا فضلا عن خراب القرى وسلب ونهب مالاصحابها من الخيرات والاشياء النافعة . ومن المناظر التي تولدالحسرة وتحزن الفؤاد أنى رأيت شيخا هرماً من الترك ملقى على الارض وبجانبه مصحف قرآن شريف مفتوحا وملوثابدمائه وذلك بينما كان البلغاريون يسلبون الناس أموالهم ويحملونها على عرباتهم ثم يجرونها فوق جثث القتلى لتدهس العجلات لحومهم وتفتت عظامهم وتهشم جماجمهم بلا رحمة ولا شفقة بل وبلا تأثر لمثل تلك المناظر البشعة الفظيعة فأين المدنية وأين حب الانسانية ؟؟؟

واني أقول ان عدد الذين فتك بهم البلغاريون من الابرياء الآمنين كثير جدا وقد ترك بيوتهم نحو الخمسة وسبعين ألفا هروبا من المعاملة القاسية البربرية ولكنهم لايكادون يفرون من القتل حتى ينقض عليهم البلغاريون

ويفتكون بأغلبهم . ولم يهرب الا القليل الى بلاد الترك وانه ليحق للعالم ان يسمى الطريق بين فيلوبوبوليس وهرمنلى (طريق الموتى) لكثرة مافقد فيه من الارواح البريئة

ولقد رأينا فى طريقنا الى قسطنطينية من أمثال هذه المناظر الفظيعة كثيرا وكم رأينا أناسا من الضعفاء يسيرون سريعا لا يلتفتون وراءهم خوفا من أعدائهم واذا سألتهم الى أين يسيرون لم يجيبوك من شدة ضعفهم وانتهاك قواهم كأنهم لا يعرفون الى أى طريق هم سائرون . وانما غاية مايتصورون انه يجب عليهم الفرار حتى يأمنوا على أرواحهم ومن شدة فزعهم وهلعهم كانوا يتركون أمتعتهم حين تكسر لهم عربة ويفرون وحدهم

واني بينما أكتب هذه الاسطر أرى امام عيني كثيرا من العربات تغدو بأصحابها بين هضاب متراكمة من الثلج وأغلب النساء يسرن حفاة عراة خائرات القوى من الضعف والتعب

ولذلك ضوضاء يصحبها صراخ الاطفال وعويل الاولاد

وبكاء النساء وزفزفة العواصف وقرقعة عجلات العربات مما يزيد المنظر فظاعة وبشاعة ومع الاسف الزائد ان هؤلاء المساكين التعساء يروحون فريسة الظلم وليس من يرحمهم أو يشفق عليهم

وقد كتب مكاتب الستندرد الذى سارمع الدوق نيقولا وجاب الجزء الشمالى من بحيث جزيرة البلقان مانصه

« لم أترك لنفسى مجالا للتكلم عن كبائر الفظائع كما يجب ان نسميها وأقول الآن ان المتوحشين لا يفعلون مع الفارين الهاربين كما فعل البلغاريون مع جيرانهم الاتراك من القساوة البربرية والمعاملة الوحشية وما حمل هؤلاء المسيحيين على فعل هذه المنكرات سوي حب نفوسهم الخبيثة للفتك بعباد الله وظمئها الى شرب دماء جيرانهم الابرياء الذين لاسلاح بأيديهم . ولقد سمع تابع لى رجلا بلغاريا فى احدى حوانيت الخمر فى (سيستوف) يقول وهو حامل سكينة هائلة « كنت أحمل معى بندقية ولكن هذه السكينة اللطيفة أفادتنى اكثر من البندقيــة لاني ذبحت بها عشرة منهم كما تذبح الاغنام »

ولعمرى ان مثل هذا التغيير لا يضارعه مثيل فى القسوة والفظاعة البهيمية وانى لا أشك أنهم قتلوا الضعفاء الابرياء وذبحوهم كما تذبح الاغنام . ولقد مضى شهران على الروسيين وهم مقيمون ومع ذلك لم يسمع ان تركيا أساء الى أحد المسيحيين . ومما يحكى ان ضابطا روسيا اشترى من أحد الفلاحين المسيحيين ديكين روميين بمبلغ نصف شلن ثم سأل الفلاح قائلا « أليس الناس فى سرور لمقابلة اخوانهم المسيحيين » فأجابه « فلننظر حتى نرى ان كنتم تعاملوننا كما كان يعاملنا الاتراك بالحسنى »

وقد سأل المستر ادموند قنصل انكلترا في (فيلوبوبليس) خليل أوغلى حسين ومصطفى أوغلى عبد الله وسليمان أوغلى رشيد وهم من سكان (بالفان) التى تبعد بمسافة سير ثلاث ساعات من ترنافو عما جرى لهم من الاهانات فأجابوا بما يأتى

« فى صباح السبت الماضى (٧ يوليو) وصل الايان من الكوساكز الى قرية (بالفان) فخرج كبارها حين

سمعوا بوصول الروسيين لمقابلة قوادها ولكن الكوساكز
حاصروا القرية وطلبوا من السكان تسليم أسلحتهم وفى اليوم
الثانى حضر ألايان آخران من الكوساكز وأحاطوا
كاخوانهم بالقرية وكان يصحبهم فى هذه المرة عدد لا يقل
عن الفين أو ثلاثة آلاف من البلغاريين الذين يسكنون القرى
المجاورة وجميعهم متقلدون بالنبابيت والسكاكين والبنادق
والسيوف المختلفة الاجناس فابتدأ هؤلاء الاوغاد فى طرد
أهل القرية وحيواناتهم ونهب الناس وسلبهم من كل شيء
يستحق الاخذ ثم أشعلوا النار في القريه فى أماكن عديدة
وكلما حاول أحد الخروج من لظى النار ولا سيما الاطفال
والنساء حملوا عليه وزجوه فيها

أما الكوساكز فانهم وقفوا بعيدا على شكل كوردون
حول القرية غير متألمين مما يجرى امام أعينهم بل كانت علائم
السرور بادية على وجوههم ولولا اننا (خليل أوغلي ومن
معه) هجمنا على الكوردون بقلوب شجعها اليأس وقطعناه
فى طرف القرية ماتمكنا من الفرار من لهيب النار » وكان

المتكلم هو خليل أوغلى المذكور ولقد استمر فى حديثه وعلامات الحزن والاسف بادية على وجهه ولكنه حينما أراد أن يتكلم عما حصل لعائلته بكى بكاء مرا وصار يتنهد كما تتنهد الثكلى ثم خنقته العبرة فلم يقدر على الكلام وبعد مدة طويلة أمكنه أن يعبر لنا عما حصل لاختيه اللتين كان يعتنى بأمرهما لان زوجيهما كانا فى الجيش وقال لنا انه رأى بعينيه عائلته وقد كانت تزيد عن احدى عشرة نسمة ترمى فى النار واحدا بعد واحد . »

ولما عبر الروسيون نهر الدانوب سنة ١٨٧٧ قبضوا على نساء الاتراك وأطفالهم الذين كانوا يحاولون الهروب من وجه أعدائهم وأحضروهم الى مدينة شملا بحالة تذيب الافئدة وتقطع الاكبدة وهناك رآهم بعض مكاتبي الجرائد الاوربية فكتبوا قراراً بهذا الشأن وأمضوا عليه .

ولقد أرسل وزير خارجية الدولة العلية هذا القرار الى السفارة العثمانية فى باريس بتاريخ ٢١ يوليو سنة ١٨٧٧ قائلا (انى أرسل اليكم القرار الآتي باجماع وامضاءات

مكاتبي الجرائد الاجنبية الآتية وهي

(كولونيا غازت) (جرنال الديبا) (نيوفراى برسيه) (ستندارد) (دايلى تلغراف)(اللستراندلندن نيوز)(مانشستر جارديان) (التيمس) (فرانكفور ترزايتنج) (مورنن بوست) (ريبليك فرانسز) (بسترلويد) (فاينرتاجبلاط) (مورنن ادفر تيسر) (سكوتمان) (نيويورك هرالد) (منشستر اكزامنر) . والقرار هو الآتى :

المضون أدناه الذين يمثلون الصحافة الاوروبية والمجتمعون فى مدينة شملا يرون ان من واجباتهم ان يعضوا الرسائل التى أرسلها كل واحد منهم الي جريدته عن القسوة البربرية التى ارتكبها ويرتكبها البلغاريون ضد السكان المسلمين الابرياء وأن يشهد كل منا اننا رأينا بأعيننا جراح النساء والشيوخ والاطفال وسألنا في مدينتى راسجراد وشملا النساء والاطفال والشيوخ عما حل بهم من الجراحات العنيفة بالسيوف والحراب فضلا عن البنادق التى ربما ظن أنها أصابتهم أثناء اشتعال نار الحرب .

ويستدل من أجوبتهم ان ماحل بهم هو من معاملة الروسيين والبلغاريين ويستنتج من كلامهم أيضا ان معظم سكان القرى من المسلمين ذبحوا كما تذبح الاغنام . ونحن الممضون أدناه نقر ان أغلب الجرحى من النساء والاطفال»

الامضاءات

وكتب مكاتب التيمس — وقد صحب هذا المكاتب الجنرال جوركو ورأى بعينه ماحل بالاتراك الابرياء — من معسكر جنوب البلقان في ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ مايأتى

ان هذه الحرب ليست من الحروب الانسانية بل هي هول على هول وفظائع على فظائع لان الجندى الروسى يرى التركى كحيوان يجتهد فى صيده ليقتله وأما البلغارى فكيفما تمكن من القتل قتل . وهذا هو البرنس ويتشتنستين يقول ان البلغاريين يقتلون جرحى الاتراك ويسلبون القتلى أموالهم فماذا يعمل الانسان ذو العواطف الحية حينما يرى اخوانه يتحمسون لشرب الدماء عند مايسمعون انه قبض على أسرى من الاتراك ؟ أم كيف يتسنى للابطال ان ينظروا بعين الرضى

رجالا يلوثون انتصارهم بما يركبونه من منكرات الفظائع والمذابح ؟ ؟ ؟ »

*
* *

لما رأت الدولة العلية ان أوروبا كلها ضدها وأن لا نصير لها بين الدول وان اطالة الحرب مضرة بها طلبت من الروسيا ايقاف الحرب وعقد هدنة للمخابرة في شروط الصلح فقبلت الروسيا ذلك بغاية الامتنان وعقدت الهدنة بين المتحاربين فى (أدرنه) بتاريخ ٣٠ يناير عام ١٨٧٨ واشترطت الروسيا عند عقد الهدنة ان القواعد الاولية للصلح يجب أن تكون استقلال الصرب ورومانيا وتنازل الدولة العلية لهما وللجبل الاسود عن بعض الاراضى وجعل بلغاريا مستقلة استقلالا اداريا وجعل الادارة فى البوسنه والهرسك مستقلة وتقدير غرامة حربية تدفعها تركيا للروسيا

وما انتشر خبر هذه الاتفاقية التى عقدت فى أدرنه بين المتحاربين حتى هاجت الخواطر فى النمسا ضد الروسيا ورأت حكومة الامبراطور (فرنسوا جوزيف) ان هذه الشروط

التي جبرت الروسيا الدولة العلية على قبولها ماسة بحقوقها ومصالحها فى البلقان وعلى شواطىء نهر الدانوب فأعلنت الدول الاوروبية بانها تعتبر كل اتفاق يقع بين المتحاربين لاغيا لاعمل له وان أوروبا كلها يجب عليها أن تجتمع فى مؤتمر للفصل بين تركيا والروسيا

أما انكلترا فقد أظهرت عندئذ ميلها للدولة العلية وتظاهرت بالمحبة والصداقة لملك آل عثمان وأرسلت بأسطولها الى مياه البوسفور وهددت الروسيا بانزال العساكر الانكليزية الى الاستانة. وسيرى القارىء الى أى غاية كانت ترمى انكلترا عندئذ وهل كانت صادقة فى تظاهرها بالمودة للدولة العلية أو غير صادقة

وقد أجابت الحكومة الروسية على اعلان النمسا بأن ليس لاوروبا حق فى ان تتداخل فى أمور لاتمس مصالحها مطلقا وان الروسيا تعرض على الدول عقد مؤتمر أوروبي للنظر في شروط الصلح . فوافق البرنس « بسمارك » على جواب الروسيا وعرض علي الدول عقد مؤتمر ببرلين

وفى هذه الاثناء كان الجنرال « اغناتييف » يتخابر مع مندوبى تركيا فى شروط الصلح وفي ٣ مارس أمضى معهم عهدة سان اسطفانوس التى هي اكبر المعاهدات ضررا بالدولة العلية . فهى تتضمن جعل بلاد الجبل الاسود مستقلة تمام الاستقلال من الدولة العلية مع توسيع نطاقها واعطائها ثغرين على البحر الادرياتيكى وتتضمن جعل بلاد رومانيا مستقلة تمام الاستقلال وجعل بلاد الصرب مستقلة مع اضافة أراضى (نيش) الى بلادها وتتضمن جعل بلاد البلغار مستقلة استقلالا نوعيا وتعيين حاكم روسي لها ينظمها ويحكمها لمدة سنتين يكون لها بعدهما الحق فى انتخاب أمير عليها وتتضمن العهدة كذلك احتلال العساكر الروسية لبلاد البلغار مدة سنتين وهدم كل القلاع والحصون الموجودة على نهر الدانوب (الطونة) وجعل الملاحة فى نهر الدانوب حرة . وتتضمن العهدة أيضا ان الادارة في البوسنه والهرسك تكون موافقة لما طلبته الدول في مجتمع الاستانة وتوضع تحت مراقبة الروسيا والنمسا وأن أرمينيا تمنح بعض امتيازات وبعض حقوق جديدة

وان جلالة السلطان يصدر عفوا عاماً عن الثوار والمجرمين السياسيين . وتتضمن العهدة غير ذلك ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حربية قدرها ١٤٠٠ مليونا من الروبل . وقد رضيت الروسيا بأن تتنازل للدولة عن مبلغ ١١٠٠ مليونا من الروبل مقابل تنازل الدولة لها عن باطوم وأردهان وقارص وبايزيد في آسيا وعن اقليم (الدبروجه) في أوروبا . وهذا الاقليم أضيف الى مملكة رومانيا مقابل استيلاء الروسيا على اقليم (بسارابيا) الذي سلخ منها فى عام ١٨٥٦

وتشتمل العهدة على تعهد الدولة العلية برعاية الرعايا الروسيين فى بلادها ووضع حقوق القسوس الارثوذكس تحت حماية القيصر واعادة تنفيذ المعاهدات التجارية التي كانت بين الروسيا وتركيا قبل الحرب وفتح بوغازى الدردانيل والبوسفور فى كل وقت للسفن التجارية

وما علمت الدول الاوروبية بهذه العهدة حتى اعترف سواسها بان الروسيا اعتدت على حقوق الدولة العلية شر اعتداء وأن دول أوربا تفقد موازنتها ويضيع بالمرة التوازن العام اذا

أنفذت شروط عهدة سان اسطفانوس . وكانت أشد الدول تهيجا ضد الروسيا هي النمسا التى خدعت فى اتفاقيتها التى عقدتها مع الروسيا فى يناير عام ١٨٧٧ فخابرت انكلترا واتفقت معها على معارضة الروسيا كل المعارضة وطلبتا منها عرض عهدة سان اسطفانوس للمناقشة بين مندوبي الدول فى المؤتمر المزمع عقده فاجاب القيصر في ٢٦ مارس سنة ١٨٧٨ بانه لا يرضى بأن دول أوروبا تتناقش فى الشروط التى لاتخص الا الروسيا وتركيا . وقد أمل القيصر عندئذ الاتفاق مع النمسا فأرسل الى فيينا الجنرال (اغناتييف) ولكن الاتفاق كان مستحيلا لتباين أميال الروسيا والنمسا

وقد استفادت انكلترا من خيبة الجنرال (اغناتييف) فى مأموريته بفيينا واعتمدت على مساعدة النمسا لها ضد الروسيا وأعلن اللورد سالسبورى وزير الخارجية الانكليزية وقتئذ أن عهدة سان اسطفانوس تجعل البحر الاسود تحت سلطة الروسيا ورحمتها وتهدد استقلال الدولة العلية وسلامتها وتضر بمصالح انكلترا. أي أن انكلترا أرادت ان تسمع

الروسيا انها اذا صممت على تنفيذ عهدة سان استفانوس قامت الحرب بينهما . وكان القابض فى الحقيقة على مفاتيح السلم والحرب حينئذ هو البرنس (بسمارك) لان المانيا كانت بين الدول فى موقف الحكم فانها اذا كانت انضمت الى الروسيا كانت اضطرت النمسا الي العدول عن محاربة الروسيا وبذلك كانت فشلت انكلترا وبلغت الروسيا مرامها واذا كانت وقفت على الحياد بدون ان تساعد الروسيا وتركتها امام انكلترا والنمسا كانت خسرت الروسيا أهم مكاسبها فى عهدة استفانوس . وقد سألت الروسيا المانيا مساعدتها مذكرة أياها برعايتها لها ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ ومساعدتها لها ضد فرنسا فى عام ١٨٧٠ حيث منعت النمسا من مساعدة فرنسا . ولكن البرنس (بسمارك) أبي مساعدة الروسيا بجنود المانيا معتذرا بان المانيا فى حاجة مستمرة لمراقبة فرنسا والاستعداد لمحاربتها فاغتاظ قيصر الروسيا واغتاظ سواسها أشد الغيظ من المانيا ووزيرها وابتدأت العداوة الكامنة بين الدولتين من ذلك الحين فى الظهور .

ولما رأت الروسيا انه لااستطاعة لها على محاربة النمسا وانكلترا بعد محاربتها لتركيا طلبت من الوزارة الانكليزية أن تعرفها عن التغييرات التى تريد اجراءها فى عهدة سان اسطفانوس وجرت المخابرات في ذلك بين اللورد سالسبورى وبين الكونت « شوفالوف » سفير الروسيا بلوندرة . وفى ٣٠ مايوعام ١٨٧٨ أمضيا اتفاقيـة سرية تتضمن التعييرات التى طـرأت على عهـدة سان اسطفانوس ولم يكن لهـذه التغييرات الجديدة التيأحدثتها الوزارة الانكليزية فى عهدة اسطفانوس أهمية لان المؤتمر الدولي كان من شأنه أن ينظر فى كل شروط الصلح وأن يقرر مايتفق عليه فيه بالاغلبية

أمافرنسا فقد كانت خطتها فىالمسئلةمن باديء الامر خطة الدولة الراغبة فى السلام العديمة الاطماع فى أخذ شيء من أملاك الدولة العلية ولما عرضت عليها الدول الاوروبية الاشتراك معها في مؤتمر يعقـد للفصل النهائىبين تركيا والروسيا اشترطت على الدول . أولا اشتراك كل الدول التى أمضت على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ فى هذا المؤتمر . ثانيا

ان لا ينظر فى هذا المؤتمر الا فى المسائل المختصة بالحرب بين تركيا والروسيا . ثالثا أن لا يبحث أعضاء المؤتمر فى شؤون مصر والشام وأن لا يناقش أحد فى المؤتمر في حقوق فرنسا على الاماكن المقدسة . فقبلت الدول كلها هذه الشروط ورضيت بذلك فرنسا أن تشترك معها فى المؤتمر

وقد ظهر للقارىء مما سبق ان انكلترا كانت متظاهرة بالمودة للدولة العلية وكانت تهدد الروسيا بأعلى صوت ولسان ولم يكن قصدها من ذلك خدمة تركيا أو مساعدتها بل التغرير بها وخدعها . فانها وعدتها بالمساعدة فى مؤتمر برلين ضد الروسيا وعرضت عليها عقد اتحاد معها تتعهد فيه انكلترا بالدفاع عن تركيا اذا مستها الروسيا بسوء — ولو كانت انكلترا صادقة فى مودتها لكانت تحالفت مع الدولة العلية قبل الحرب — وتأخذ منها مقابل ذلك جزيرة (قبرص) فانخدع رجال الدولة العلية لسواس بريطانيا وأحسنوا الظن بهم وعقدوا معهم هذه المعاهدة في ٤ يونيو عام ١٨٧٨ أى قبل عقد مؤتمر برلين بايام قلائل وبذلك فقدت الدولة العلية جزيرة قبرص بدون

أن تكسبها المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة

*
* *

وقد دعا البرنس بسمارك رسميا فى ٣ يونيو عام ١٨٧٨ مندوبي الدول الاوروبية للاجتماع ببرلين فحضر المندوبون وعقدت الجلسة الاولى للمؤتمر فى ١٣ يونيو . وكان أهم مندوبى المانيا البرنس (بسمارك) وأهم مندوبي النمسا الكونت (اندراشى)وأهم مندوبي فرنسامسيو (وادنجتون)وأهم مندوبي انكلترا الكونت (بيكونسفيلد) والمركيز(دى سالسبورى) وأهم مندوبى ايطاليا الكونت (كورتى) . وكان مندوبو الروسيا البرنس (غورتشا كوف) والكونت(شوفالوف) والبارون (دوبريل) . أما مندوبو الدولة العلية فكانوا (قره تيودورى باشا) و (ومحمد على باشا) الروسى الاصل و(سعد الله بك)

وقد أرسلت حكومة اليونان مندوبين من قبلها لعرض مطالب اليونان على المؤتمر وكان مندوبو انكلترا مساعدين لهم كل المساعدة فطلبوا من المؤتمر قبولهم لسماع أقوالهم .

وكان قصد مندوبي انكلترا من هذه المساعدة مماكسة الروسيا التي يسوءها تقوية العنصر اليوناني لما في ذلك من الضرر بالعنصر السلافي . وكأن مندوبي انكلترا كانوا يجهلون ان مساعدتهم لليونان تضر بالدولة العلية أكثر من ضررها بالروسيا . ولكن مصالح الدولة العلية كانت لا تهمهم مطلقا بعد ان تحققت أمنيتهم بالاستيلاء على (قبرص) !

وكانت تنحصر مطالب اليونان في اظهار ضرورة استيلائها على تساليا وأبيرا وألبانيا وكريت . وقد قرر المؤتمر قبول مندوبي اليونان في آخر جلسات المؤتمر وسماع مطالبهم

وأول مناقشة دارت بين أعضاء المؤتمر كانت على مسئلة بلغاريا واستغرقت أربع جلسات . وقد انتهت المناقشة باتفاق أعضاء المؤتمر — بالرغم من معارضة مندوبي الروسيا — على جعل مساحة بلغاريا أقل بكثير مما اتفقت عليه الروسيا مع الدولة العلية في سان اسطفانوس بجعل حدودها عند جبال البلقان واعطائها (صوفيا) كعاصمة لها مع بعض الاراضي في جنوب البلقان . وقرر المؤتمر بذلك جعل مساحتها ٦٤٠٠٠

كيلومتر مربعا بعد أن كانت في اتفاقية سان اسطفانوس
١٦٣٠٠٠ كيلو متر مربع . وصار عدد سكانها مليونا ونصف
مليون بعد ان كان في عهدة اسطفانوس أربعة ملايين. وبذلك
بقيت سواحل الارخبيل في أيدى الدولة العلية خلافا لشروط
عهدة اسطفانوس . وقرر المؤتمر جعل احتلال الجنود الروسية
لبلاد بلغاريا لمدة تسعة أشهر فقط لا لسنتين كما قررته عهدة
اسطفانوس وجعل تنظيم بلغاريا تحت مراقبة لجنة دولية لا
تحت مراقبة مندوب روسى

وقرر المؤتمر كذلك انشاء ولاية جديدة في جنوب البلقان
بين مقدونيا وأدرنه تكون عاصمتها مدينة (فيليبوبوليس)
وتسمى بالروملي الشرقى وتكون ادارتها الداخليـة مستقلة
وأن لا يجوز للجنود العثمانية أن تقيم فى داخلها بل يكون لها
الحق فقط فى الدفاع عن حدودها . ولم يرض أعضاء مؤتمر
برلين تسمية الروملي الشرقى ببلغاريا الجنوبية ولكنهم كانوا
يرمون ولا محالة الى ضم هذه الولاية الجـديدة الى بلغاريا
بعد زمن قليل من عام ١٨٧٨

ولما دارت المناقشة بشأن (البوسنه والهرسك) قام الكونت (اندراشى) مندوب النمسا وقرأ تقريراً طويلاأبان فيه أن بقاء هاتين المقاطعتين تحت يد الدولة العلية أى تحت حكم المسلمين يكون سبباً لاستمرار الاضطرابات والثورات فيهما وأظهر ما فى ذلك من الضرر بمصالح الدولة النمساوية وما انتهى من كلامه حتى وقف المركيز (سالسبورى) وأيد أقواله وسأل المؤتمر تقرير احتلال الجنود النمساوية لمقاطعتى البوسنه والهرسك احتلالا لا أجل له . وهكذا ساعدت انكلترا الدولة العلية وبرهنت لها على صدق اخلاصها !. . . ! وقد احتج مندوبو تركيا على هذا السؤال الغريب فأجابهم البرنس بسمارك — الذي كان الموعز للكونت (اندراشى) وللماركيز (سالسبورى) بما طلباه — بأن الغرض من مؤتمر برلين ليس رعاية المصالح العثمانية بل رعاية مصالح أوروبا والمدنية !....! وقد اتفق مندوبو المؤتمر بالاغلبية على جعل البوسنه والهرسك تحت حكم النمسا واعطائها حق احتلال أقليم « نوفى بازار » . وهو أقليم على طريق سالونيك

وبعد ذلك نظر المؤتمر فى مسئلة الصرب والجبل الاسود
فأعلن استقلالهما تمام الاستقلال وقرر اعطاءهما بعض
الاراضى لتوسيع نطاقهما ولكن أقل مما قررته عهدة
اسطفانوس. وفى ذلك الوقت قرر المؤتمر سماع مطالب اليونان
فدخل المسيو « ديليانيس » والمسيو « رانجابيه » وقرأ الاول
مطالب حكومته وهي تشتمل على اعطاء اليونان ألبانيا وأبيرا
وتساليا وكريت. فاتفق أعضاء المؤتمر على تقرير جعل المناقشة
فى مطالب اليونان بين اليونان والدولة العلية نفسها وعلى انه
اذا لم يحصل الاتفاق بين الحكومتين على تحديد حدود
جديدة بينهما يعرض الامر عندئذ على الدول الاوروبية
وأقروا على تنظيم المقاطعات اليونانية الباقية تحت حكم الدولة
العلية على نسق الروملي الشرقى وجعل تنظيمها تحت مراقبة
اللجنة الدولية

ولما جاءت مسئلة رومانيا أعلن المؤتمر استقلال هذه
البلاد كصربيا والجبل الاسود وقرر المساواة التامة بين كل
أهاليها على اختلاف دياناتهم . وهذا القرار جاء مفيدا جدا

لليهود الذين أساءت اليهم حكومة رومانيا في معاملتها معهم كما أساء اليهم أهلوها كل الاساءة . وقد سمع المؤتمر مندوبي رومانيا « المسيو براتينو والمسيو كوجولنيسانو » كما سمع مندوبي اليونان فطلبا منه عدم تقرير سلخ أي جزء من أراضي رومانيا وعدم مرور الجنود الروسية في بلادهم وأن يقرر أن الروسيا تدفع غرامة لرومانيا مقابل ماتكبدته من الخسائر أثناء الحرب .ولكن المؤتمر لم يستطع قبول هذه الطلبات لما فيها من المساس بمصالح الروسيا واكتفى بتقرير اعطاء رومانيا ألفي كيلومتر مربع في أقليم الدبروجة

وقد نظر المؤتمر بعد ماتقدم في مسئلة الملاحة في نهر الطونة فقرر بقاءها على ماكانت عليه قبل الحرب ومنح النمسا بعض امتيازات . وقرر المؤتمر في مسئلة الغرامة الحربية عدم جواز استبدالها بأراض أو بيلاد عثمانية واعتبار الروسيا آخر دائن لتركيا أي أنه لايجوز لها أن تتقدم في المطالبة بالغرامة الحربية قبل الدائنين السابقين لتركيا

أما ما يتعلق بالمسيحيين في الدولة العليـة فقـد صرح

مندوبو تركيا بأن دولتهم تحترم كل الديانات فى بلادها وتعامل رعاياها على السواء فقرر المؤتمر جعل المساواة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحيين تامة وجعل المسيحيين فى بلاد الدولة العلية تحت حماية أوروبا المعنوية

ولم يبق امام المؤتمر بعد المسائل السالفة الذكر الا مسئلة استيلاء الروسيا على بعض بلاد ومواقع فى آسيا فتعهدت الروسيا بالتنازل عن مدينة (بايزيد) للدولة العلية مقابل تنازل الدولة عن مدينة « خوتور » للعجم وتعهدت كذلك بعدم تحصين ثغر (باطوم) وجعله ثغراً حراً للتجارة . وقد قرر المؤتمر أيضاً ان الاصلاحات المزمع اجراؤها فى أرمينيا تعرض على الدول الاوروبية كافة وان حرية بوغازى البسفور والدردانيل تبقى كما قررته معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة لوندره عام ١٨٧١

ولما رأى مندوبو انكلترا ان أعمال المؤتمر قد انتهت وان الساعة آذنت باعلان استيلاء دولتهم على جزيرة (قبرص) أعلن الكونت (دي بيكونسفيلد) ذلك فى ٨ يوليو عام

١٨٧٨ لاعضاء المؤتمر فاندهش مندوبو الروسيا غاية الاندهاش وتحقق العالم كله ان انكلترا قد خدعت الدولة العلية اكبر خدعة وانه خير لها أن تعتمد على ألد أعدائها من أن تعتمد على دولة الانكليز . ولم يندهش البرنس (بسمارك) ولا الكونت (اندارشى) من اعلان الكونت (دى بيكونسفيلد) استيلاء انكلترا على قبرص لانهما كانا عالمين بالامر ولم يعارضا فيه لتعهد (بيكونسفيلد) بمساعدتهما في تقرير استيلاء النمسا على (البوسنه والهرسك)

وقد طلب البرنس (غورتشا كوف) مندوب الروسيا قبل انفضاض المؤتمر تقرير الوسائل الفعالة التى تستطيع بها دول أوروبا اجبار تركيا على تنفيذ قرارات مؤتمر برلين واستمرت المناقشة فى هذا الطلب ثلاثة أيام ولكنها انتهت برفضه وخرج البرنس (غورتشا كوف) من موئتمر برلين منهزما شر هزيمة سياسية

وفى ١٣ يوليو عام ١٨٧٨ أمضى منـدوبو المؤتمر على معاهدة برلين وانتهت بذلك جلسات المؤتمر

دار البستاني للنشر والتوزيع
٢٩ ش الفجالة ١١٢٧١ القاهرة
س.ت/ ١٠٠٤-٣١ - ب.ض. ١٤-١٠
٢.ض ٤ ١٩١/٢٤/٤١٦٦/٥ مدينة نصر

